رواية قرض حياة

الكاتبة / ميرفت شتلة

هذه الرواية عمل إبداعي بحت، وإن وجد أي تشابه ما بين الأسماء، أو الأحداث في الحقيقة؛ فهو على سبيل الصدفة.

إهداء

إلى روح أمي التي لطالما ظلت تسير داخل دروب نفسي؛ باحثةً عن قواعد، مشاعل تضيء بها ظلمة ووحشة الحياة، وحينما لم تجد؛ جعلت من يديها حاملاً لمشاعل أرشدتني بها للخروج والانطلاق، وحينما رحلت جعل الله من ابنتاي، لتكملا مشوار حاملي المشاعل، أشكركم يا من وقفتم بجواري؛ حتى انطلقت النفس إلى عنان الحياة.

****

مقدمة

هل يعيد قرض حياة الحياة من جديد؟ في محاولة يائسة؛ لتعيد ما سلب منها، وسط زحام حياة مملوءة بضوضاء المشاغل، وأيام تجرها من ألم لصدمة، لجراح، وهي تحاول لملمة بقاياها المبعثرة، وكأن طوق النجاة الذي تعلقت به هو قرض حياة.

****

الفصل الأول

في هذا اليوم، شاهدها تسير، سأل نفسه كيف لم يلحظها من قبل، وما هذه البهجة التي يراها في وجهها؟ وهذه الطفولة والبراءة، ماذا يري؟ سيدة في الخمسين من عمرها أم طفلة في الرابعة عشر أو الخامسة عشر على الأكثر؟ وجه طفولي مريح بشدة، يحاول أن يجد أسباب للضحك والمرح، تفرد يدها؛ لتلمس الأشجار، والزهور، يا إبداع المنظر؛ ضحكة وجهها تزداد، وتتسع ابتسامتها مع كل زهرة متفتحة، حتى ألوان ملابسها مريحة؛ فهي ترتدي زياً باللون الرمادي الفاتح والغامق، وحذاء رياضي من النوع الخفيف، تحمل بيدها حقيبة من الحجم الصغير.

سأل نفسه:

- لماذا وقعت عيناه عليها دون غيرها؟ ربما لأنها تسير وكأنها في رحلة طيران سريعة!

قدمها تكاد ترتفع أثناء خطواتها، يا للحيرة التي ألقتها بداخله! اقتربت حيث يقف؛ فدقق بملامح وقسمات وجهها؛ وجد أنها ما بين الخمسين، أو أكثر قليلاً، لم يراها

إلا منذ قليل، وأثارت في عقله عشرات الأسئلة، بخطوات واثقة تخطوها؛ حتى ابتعدت، لا يعرف لماذا لفت انتباهه وجودها؟ وملامحها التي أوقعته في بحر من الحيرة!

تسمر واقفاً بلا حراك في مكانه، شارد، وتساؤلات وراء تساؤلات، ملأت عقله ما الذي شده إليها، أهو إعجاب من نوع ما؟ رفض عقله وقلبه الفكرة بالمرة.

بعض الاتصالات الهاتفية أكملها أثناء وقفته، لم يعرف الوقت، إلا حينما نظر إلى ساعته؛ وجدها الحادية عشر صباحاً، نزل من بيته ليتريض؛ فهي عادة له، التمشية بالقرب من بيته، قبل البدء في أحداث يومه.

ومرة أخرى عائدة من بعيد، رؤيتها مرة أخرى في وقت قريب؛ جعل في نفسه إلحاح غامض؛ لمعرفة بعض المعلومات عنها، فالوقت الذي ظهرت فيه، هو الوقت الذى ينزل فيه تقريباً.

عادت ووجهها يمتلئ بالطاقة والحيوية، وبخطواتها المرحة، تشعر بأنها كانت سجينة، وحُررت، شده إليها كل ما رآه فيها، وجذبه لمعرفة بعض الإجابات عن الأسئلة التي دارت بداخله حولها:

- من تكون، مع من تقيم، إلى أين تذهب؟ ولكن! أمن حقه معرفة هذا كله عنها؟

سؤال سأله لنفسه، إلحاح طفولي بداخله، لم يترك أسباباً للرفض، وحدث نفسه:

- سأنتظر الغد ليجيب.

اسمه طارق، عمره سبعة وعشرين عاماً، توفى والديه وهو في نهاية المرحلة الثانوية، تاركين له شقيقة واحدة، تكبره بعامين، اسمها هيام، وكانت في السنة الثانية في المرحلة الجامعية، ظروفه لم تسمح له بمعرفة الكثير من الأصدقاء؛ فاكتفى بصديق واحد فقط، يكبره بعامين، جاراً له في السكن، اسمه حازم.

عمل طارق أثناء دراسته؛ ليعيل نفسه، وشقيقته، مع معاش بسيط تركه والده، له عمة تقيم في الإسكندرية تهتم كثيراً لشؤونهما.

إعجاب واحترام، ربط بين هيام وحازم، وملامح مشاعر لاحت مع الأعوام، راقب طارق ذلك بحذر، حتى أتم حازم وهيام عامهما الجامعي الأخير، وطارق في كلية الحاسبات والمعلومات – التخصص الذي يهواه ويتمنى لنفسه مستقبل واعد فيه- حينها تقدم حازم لخطبة هيام بشكل رسمي من شقيقها، وكم كانت سعادة طارق؛ فهو الجار والأخ والصديق، سيضاف على الألقاب لقب زوج الأخت.

التحق حازم بالعمل في إحدى الشركات الدولية، التي تقوم بتدريب عامليها؛ لترسلهم الى فروع لها ببعض البلدان، وحينما أتم العام وبعض الأشهر؛ طُلب منه أن يستعد للسفر إلى لندن -مقر عمله الدائم- وتهيأ طارق لفراق شقيقته؛ بزفاف بسيط ضم القليل من الأقارب، ومراسم أُختتمت بسفر الزوجان؛ لبدء حياة جديدة.

وبعد مرور بعض الأشهر على سفر هيام، تلقى طارق اتصال هاتفي منها؛ وبدموع مختلطة بالضحكات، أخبرته بأنها سترزق بطفل، تتمنى أن يشبهه في الكثير، وبسعادة وانتظار، اختتم طارق حديثه معها.

رزقت هيام بولد أسمته آدم، وفي تلك الأثناء كان طارق قد انتهى من دراسته الجامعية، لم يكتفي بذلك، بل أثقل دراسته بالكثير من الدورات التدريبية، التي عززت لديه المعرفة، بل والخبرة في مجاله.

أرسل طارق سيرته الذاتية إلى الكثير من مواقع العمل، وأجرى الكثير من المقابلات، لكنه لم يحظى إلى الآن بفرصة تغني عشقه، وحبه لمجال الحاسبات والمعلومات، انتظر كل يوم رد من أي من المواقع التي قدم فيها.

صعد طارق الدرجات مسرعاً إلى الحمام، وبعده تناول كوب من القهوة؛ ليجدد نشاطه، مرت دقائق اليوم، كأنها الساعات؛ حتى أتي الليل؛ فألقي بجسده على فراشه؛ فهاجمته على وسادته عشرات، بل مئات الأسئلة، حول تلك المرأة، عازماً أن يأتي الغد حاملاً الأجوبة، حتى استسلم أخيراً لنومٍ ثقيل، محمل بأحلام وطموحات كأي شاب في مثل عمره، وأضافت تلك المرأة ثقلاً من الحيرة والتشوق لغدٍ؛ يراها مرة أخرى.

في الصباح أفاق بنشاط، واستيقظ مبكراً، ارتدى ملابسه في لمح البصر، وخرج محاولاً اللحاق بموعد خروجها،

وقف على أعتاب البيت لدقائق؛ منتظراً ظهورها، وشعور خفي بالسعادة؛ حينما رآها تخرج من إحدى البنايات، التي تشبه القصور القديمة، تلفه الحدائق، وبعض التماثيل الحجرية المنحوتة بفن وإتقان.

بدأت رحلتها بنفس نشاطها، ابتسمت من بعيد بسمة طفلة؛ لتخفي وراءها خطوط العمر المرسومة على وجهها، وكعادتها ألقت التحية على الأزهار، والأشجار تلمسها بيديها، ووجهها كأنه زهرة تسقيها تلك اللمسات؛ فتتفتح ابتسامتها.

عزم طارق أن يلقي عليها التحية؛ حينما تمر بجواره؛ ليفتح صفحة للتعارف، وبخطواتها الواثقة اقتربت من مكانه؛ فحياها بحركة يده؛ فردت بتهذيب عليه، ثم أسرعت للاختفاء لنهاية الطريق.

انتظر عودتها؛ علها تجيب عن بعض الحيرة بداخله، رنات هاتفه أعادته إلى مكانه، زميل له من أيام الدراسة اسمه "علي" أخذ يسأله عن أحواله، وهل استطاع الحصول على عمل أم لا، وعرض عليه فرصة عمل في مشروع جديد، أنشأه هو ومجموعه من الخريجين، وطال الحديث وبعدها انتهي على موعد باللقاء لشرح تفاصيل المشروع.

ها هي آتية بخطواتها الواثقة، والشيب الخفيف، بخصلات شعرها المنسدل كخيوط الحرير، ما يراه يفوق الكلمات، البهجة المتحركة، النشاط العفوي، الطفولة المرحة؛ فهي مجموعة كبيرة من المتناقضات في جسد واحد، فضوله لمعرفتها ليس له أسباب!

وهي تقترب أكثر، حينما رأته؛ لوحت بيدها، وهي على تلك الحالة، جاءت سيارة مسرعة؛ لتصدمها بقوة من الجانب الآخر؛ قذفتها بقوة بعيداً؛ لترتفع ويطير جسدها في الهواء، قبل أن ترتطم بالأرض، كل هذا حدث في ثواني، صرخ طارق وهو يسرع نحوها.

اختفت السيارة، وتركتها ملقاة، غارقة في دمائها، وتجمع المارة من جميع المحلات، وهرع صاحب المطعم، بوجه باهت والهلع يملأ جميع ملامحه، سأل الجميع:

- هل رأى أحداً منكم السيارة التي صدمتها؟

كانت الاجابة من الجميع:

- أن ما حدث كانت مجرد لحظات بارقة، لم تعطي أحداً الفرصة؛ لمعرفة التفاصيل.

لم يستطع أحد الاقتراب منها؛ خشيةً أن تزداد إصابتها سوءاً، ومنهم من اتصل بالإسعاف، التي وصلت بعد دقائق، تصاحبها سيارة النجدة، انتبه طارق إلى حقيبة السيدة الملقاة على جانب الطريق؛ فألتقطها سريعاً، وهو يعدو نحو المسعفون، الذين سارعوا بحمل السيدة، ونقلها إلى سيارة الإسعاف، صعد طارق بجوارها، وخلفهم صاحب المطعم بسيارته، إلى إحدى المستشفيات الخاصة القريبة، تمت بعض الإجراءات السريعة، ثم توجهوا بها إلى غرفة العمليات، وقامت شرطة النجدة باستجواب بعض المارة عن الحادثة، وكان رد الجميع أن السيارة ظهرت من العدم؛ لتحدث الفاجعة وتختفي.

وفي المستشفى؛ جلس طارق صامتاً، وجميع الهواجس تجمعت بداخله؛ ليسافر بها بعيداً عن مكانه، جلس بجواره صاحب المطعم، عرف عن نفسه:

- اسمي ضياء.

التفت إليه طارق، ولا زالت الصدمة، والحادثة تغلق أبواب كلماته، فجاءت إحدى الممرضات؛ لتقول أنه يلزم دفع مبلغ كدفعة؛ للخدمات التي ستقدم لها من تحاليل، وأشعة، وعمليات جراحية، وببطء تقدم ضياء بفيزا بنكية، أخرجها؛ ليدفع المبلغ المطلوب -خمسون ألف جنيه- وعاد ليجلس بجوار طارق، وبين بعض الكلمات المقتضبة بينهم، وبين الصمت، مرت ساعتين وأكثر؛ لحين ظهور اثنين من الأطباء، وبخطوات مسرعة؛ اتجه طارق وضياء نحوهما؛ للاطمئنان على حالتها، وبطريقة الباحث عن الكلمات، تحدث أحد الأطباء:

- الحالة في غيبوبة تامة، وإن الإفاقة من الغيبوبة لا موعد لها، مع وجود بعض الجروح القطعية في الوجه، وحول العينين، وتم التعامل معها بالجراحات التجميلية، ورضوض في أنحاء متفرقة من جسدها؛ وذلك بسبب الارتطام بالأرض، أي تقدم في حالتها مرهون بالوقت، والإفاقة من الغيبوبة.

شرد طارق بعيداً، إلى اللحظة التي رآها فيها، وعاد حيث استكمل الطبيب الثاني الحديث:

- الحالة غير مستقرة، وهي الآن في غرفه العناية المشددة.

ولم يجد الاثنان رد سوى:

- إن شاء الله خير!

دخل في تلك الأثناء أحد ضباط الشرطة؛ ليستكمل التحقيق، انسحب ضياء بسرعه من المشهد؛ متعللا بانشغاله، رد الأطباء على جميع الأسئلة، ولم يتم التوصل إلى أي معلومات جديدة، وعندما هَمَّ طارق بالرحيل؛ تذكر أن يسأل على موعد الزيارة، أبلغته إحدى الممرضات، بأن مواعيد الزيارة تبدأ يومياً من الساعة الرابعة عصراً، وتنتهي في الخامسة، رحل بعدها عائداً إلى بيته، وفي طريق العودة، ولقرب المستشفى من بيته؛ فضّل السير؛ ليشعر ولو بقليل من الهدوء، بعد يوم ملئ بالأحداث المتسارعة، صعد درجات منزله في هدوء لم يعهده في نفسه، ودخل شقته، إلى حمام بارد؛ نظراً للحرارة الشديدة، وبعده إلى كوب من القهوة؛ ليشعره ولو ببعض لحظات من النشاط الذهني؛ ليستجمع بعض من أفكاره وتركيزه، الذي تاه مع أحداث اليوم، وعندها تذكر طارق الحقيبة التي كانت معها، وسأل نفسه:

- أمن حقه أن يفتحها؟

لكن أمله في العثور على معلومات عن السيدة، أو أقارب؛ ليعرفوا ما حدث لها، جعل عيناه تفتح الحقيبة قبل يده، وكانت مفاجأته لم يجد سوى زجاجة مياه معدنية صغيرة، وميدالية من المفاتيح، بها مفتاحين، أحدهم لسيارة، والثاني من الواضح أنه لبيتها، لشده تعبه وإرهاقه النفسي والجسدي، استغرق في نوم عميق.

****

في الصباح؛ استيقظ على رنات هاتفه المتلاحقة، نظر في هاتفه؛ فوجد الكثير من الرسائل من شقيقته هيام، واتصالات كثيره من عمته، اتصل بعمته ليطمئنها بعد عتاب منها على عدم الرد على كثرة اتصالاتها، ختم طارق المحادثة بالاعتذار، ثم قام بالرد على رسائل شقيقته، وقام بوضع بعض لقيمات دون جوع ولمجرد التعود، ثم بدأ يستعد لرحلة التريض اليومية، تذكر الأمس وما حدث؛ فلوهلة قد سقطت تلك الأحداث كلها من عقله، بدل طارق ملابسه، ونزل مسرعاً، في طريقه مر على مطعم ضياء، وجده يجلس في أحد الأركان الهادئة بالمطعم، ألقى طارق التحية، واعتدل ضياء في جلسته، وطلب من طارق الجلوس معه، بدأ طارق يسأل عن السيدة، وكانت دهشة طارق؛ حين عرف أن ضياء يعرف اسمها "نادية قاسم" وتقوم بطلب وجباتها من المطعم، وهي تقيم بمفردها في هذا البيت الكبير، بادر طارق ضياء بسؤاله:

- أمن وجبات إضافية تطلبها السيدة نادية قاسم؟

رد ضياء:

- مطلقاً، مجرد وجبات فردية دائماً!

زادت لمحات الحيرة في ذهن طارق؛ وكأن الغموض، والتكتم يحيط بها، وأخبر ضياء بأمر الحقيبة التي وجدها، ومحتوياتها، بعد دقائق دخل رجل، وتوجه مباشرةً إلى حيث يجلس ضياء، الذي قدمه إلى طارق:

- الأستاذ أنور، هو محامي خاص بكل الإجراءات القانونية وشؤون العائلة.

ناقش الثلاثة الحادثة، وما دار بعدها، وتشاوروا فيما يجب أن يتم، وكان الاتفاق على الذهاب إلى بيتها؛ لاستخراج أي معلومة عن أقاربها؛ للتواصل معهم، وإبلاغهم بمكانها، وما حدث لها، وغادر الجميع، على أن يكون موعد اللقاء في الواحدة ظهراً.

أكمل طارق سيره، تبادر إلى عقله علامة كبيرة للتعجب، والدهشة، من اهتمام ضياء بالتفاصيل، ودفع كامل التكاليف، بل تعهده بمواصلة التكفل بها، وصل إلى شقته، وبدأ في استكمال رحلته اليومية في البحث عن عمل؛ متصفحاً المواقع المعلنة عن تخصصه، دون حماس مر الوقت سريعاً.

التقى الثلاثة في الموعد المحدد، أمام باب المطعم، وأعطى طارق لضياء المفاتيح، وتوجهوا إلى بيت نادية قاسم، ولقربه من المطعم؛ لم تمر سوى دقائق، حتى وصلوا، نظر طارق بإعجاب وانبهار للتماثيل المحيطة بالبيت.

عدد من التماثيل الحجرية بمعالم وملامح واضحة، وزهور جميلة تملأ حديقة صغيرة خارج القصر، وعند الباب انتظر ضياء، حتى اجتمع الثلاثة، فتح الباب وأضاء أنوار القصر؛ فدخل عقل طارق إلى القصر قبل عينيه، وشعور بالصدمة، ألجمت الكلمات كل شيء، إن لم يكن في مكانه، فهو مرسوم بدقة متناهية، فالبهو الكبير تتوسطه أريكة بجوارها ثلاثة كراسي، وآخر يبعد قليلاً، بجواره طاولة منحوت على جوانبها الأربعة تمثال لامرأة، تحمل طفلاً صغيراً، التماثيل واضحة المعالم والإتقان في النحت والطلاء؛ مما يدل على أنها قطعة فنية ثمينة، والتقت أعين ضياء وأنور في تعجب صامت؛ وكأنهما قدرا وعلما قيمة ما حولهما، أركان المكان مغلفة برائحة جميلة، تشبه روائح العود الشرقي العميقة، وسلِّم يتوسط البهو، بحث الجميع عن أي هواتف محمولة؛ فهي الأسرع؛ لمعرفة المعلومات، أو أسماء يمكن الاتصال بها، دارت عينا طارق حول المكان؛ عرفاناً وامتناناً لذوق السيدة الراقي في اختيار قطع الأثاث، حتى أماكن وضعها، إن لم تكن في أماكنها؛ فهي محسوبة بدقة لا تخطأ، وتساءل طارق في نفسه:

- أين نحن؟

وكأنه يلف في أرجاء متحفاً للقطع الفنية النادرة، كل قطعة ذهبت به بلا رجعه إلي عالم من الجمال والندرة، استفاق على نداء ضياء؛ للصعود للدور العلوي؛ لاستكمال رحله البحث. وفي الدور العلوي، وجدوا ستائر، تتوسط المدخل إليه بلون هادئ ومريح، تقدم ضياء حيث ممر طويل، به عدد من الأبواب المغلقة، واستقبلتهم نفس رائحة العود، التي ملأت أرجاء البيت، مد ضياء يده؛ محاولاً فتح إحدى الغرف في بداية الممر، وجدها مغلقة، وحينما توجهوا إلى الغرفة الثانية، وجدوا أن ضوءاً خافتاً منبعث منها، أضاء ضياء بقية أنوار الغرفة لاستكمال رحله البحث، ولم يتحير طارق، في تميز لون أخشاب الغرفة، بلون وردي هادئ جميع المحتويات، حتى خزانة الملابس، والفراش وبساط الأرض، ولكن بدرجات تصعد، وتهبط بهدوء مريح للنفس، واستقبلتهم رائحة العود المنتشرة في المكان، وكل منهم إتخذ مكان، وموضع للبحث،

وكان من نصيب طارق قطعه أثاث تشبه إلى حد كبير القطعة في بهو القصر، ولفت نظره أن أحد الأدراج غير موضوع بالطريقة الصحيحة؛ فسحب الدرج إلى الخارج؛ فسقط من وراءه كتاب، أو رواية، ولم يشعر بنفسه وهو يضعها خلسة بين خفايا ملابسه، لم يعرف سبباً لما فعل، وفكر في إعادته إلى مكانه، لكن شغفه لقراءة الروايات؛ جعله ينهي فكره إعادتها، استدار الجميع، معترفين بعدم الخروج بأي معلومات جديدة، سوى خطابات للبنك مدونة عليها الاسم بالكامل "نادية قاسم شاهين الببلاوي"

بيأس؛ ولعدم العثور على شيء ينفعهم في رحلة البحث، أغلقوا القصر، وتوجه الثلاثة إلى المطعم بعد إغلاق المنزل، فهو مطعم أنيق هادئ، تلفه بعض أشجار الياسمين الكثيفة المعتنى بها، وبعض أنواع الصبار ذات الاشكال الغريبة، والجميلة، دخل الجميع إلى إحدى الطاولات، وكل منهم ملتزم الصمت، فأصبحت السيدة نادية مسؤولة من طارق أو ضياء أمام إدارة المستشفى، وتوجب عليهما مداومة الزيارة، ومتابعة حالتها؛ لحين ظهور أقارب لها.

نظر طارق إلى ساعته؛ وجدها الثالثة وعشرين دقيقة، مع اقتراب موعد الزيارة؛ استأذن ضياء وأنور للذهاب إلى المستشفى، وعرض ضياء مرافقة طارق، ولم يعطي له فرصة؛ لمعرفه ماهية ما قام بإخفائه، وحينما وصلوا؛ ذهب طارق للسؤال عن رقم غرفة السيدة نادية، وعلم أن الزيارة لشخص واحد فقط، ولعدة دقائق؛ نظراً لدقه حالتها، التفت طارق واعتذر لضياء، مرشحاً نفسه بدلاً منه، وبخطوات ثقيلة؛ تقدم نحو الغرفة، وبهدوء فتحها، وتقدم بداخلها؛ وجد جسد السيدة نادية متصلاً بالعديد من الأجهزة الطبية، والضمادات تملأ وجنتيها وجبهتها، عيناها مغلقتان، ورغم الهدوء الذى تحرك به طارق داخل الغرفة، فتحت عينيها ببطء، وبوجه متعب متألم تبسمت مجرد لحظات، وراحت مرة أخرى إلى غيبوبتها، بيأس وحزن أغلق طارق الغرفة مغادرًا، توجه إلى ضياء، وتوجه الاثنان إلى الأطباء المشرفين على حالتها؛ لمعرفة أخر التطورات، فأخبرهم الطبيب أنها أفاقت ظهر اليوم بعض الوقت، ولكن لا زال فقدان الذاكرة هو المؤكد في حالتها؛ فهي لا تعرف أي شيء عن نفسها، شعر ضياء بارتياح أخفاه، وحزن عميق تسرب إلي طارق، وغادر الاثنان، وتعلل طارق بموعد مع صديق؛ ليسرع إلي بيته من طريق مختصر.

في شهر أغسطس، ولحرارة الجو؛ لا بد من حمام سريع، قبل أي شيء، أنهاه وتناول ما بقي لديه من طعام، وذهب إلي غرفته، قام بتشغيل جهاز التكييف، وأغلق الباب وكأنه يحمل قنبلة يحاول تفكيكها، جلس علي سريره ممسكاً بالكتاب الذي اختلسه من قصر نادية، وسؤال تبادر إلى ذهنه:

- لماذا كانت تخفيه وراء أحد الأدراج، ما نوع الكتب التي تقرأينها سيدتي؟

وقبل أن يفتح الكتاب؛ لف بعينيه داخل غرفته، أين هو من النظام؟ ورائحة العود الجميلة في بيت نادية؛ فأشفق على نفسه، وأحضر زجاجه العطر؛ ليخرج بعض زخاتها، ومستسلماً لحاله وراضياً، جلس ليفتح الكتاب؛ وجد أنه عبارة عن غلاف لقصة قديمة، مثبت بعناية فوق مجموعة من الأوراق، مكتوبة بخط اليد، وأصبح جلياً أن ما أختلسه هو مذكرات وليست قصة، أغلق طارق عينيه لحظات وسأل نفسه:

- هل من حقه قراءتها؟ فربما تحمل خبايا أو أسرار، ليس من حقه معرفتها!

فضول وإلحاح حمل يده لفتح معرفتها، تردد طارق مرة أخرى وأغلقها، محاولاً إثناء فضوله اللحوح، ولكن هيهات؛ فقد تغلب فضوله، وبدأ في فتح الصفحات والقراءة:

"طفولة أم شيخوخة مبكرة "

هذه كانت أولى كلماتك، ماذا دار في حياتك سيدتي لتقولي هذا عن طفولتك؟

وأكمل:

- كنت جميلة بلا غرور، ذلك الجمال الذي لا يحتاج إلى شيء ليكمله، شعر بني لا يحتاج إلى أسنان مشط لتصففه، بل ينسدل على ظهري، عيون بنية اللون يضرب الخضار جزء فيها، وقوام يتناسق مع هبات الله الأخرى، منذ صغري وأنا أحمل هموم من حولي، أنا أصغر الأبناء لعائلة كبيرة، مكونة من أبي، أمي، وثلاثة من الأشقاء، ولدين وبنت، وكان أبي يعمل في سلك القضاء، دائم الأسفار، وأمي مشغولة دائماً بخدمتنا، وأنا قاضي المشكلات، وحل الأزمات لأشقائي، واشتهرت وسط عائلتي بأنني ضليعه في الخروج من الأزمات، وخبيرة في حل مختلف المشكلات، رغم صغر سني، لم تكف غرف أشقائي عن مناداتي نادية، نادية؛ فألهث لحل مشاكل الجميع، حتى أمي كانت تلجأ إلي لحل أزماتها، أو خلافتها مع الجيران، وحتى خلافتها مع أبي، يا لها من عائلة؛ لم تراني أبداً طفلة، بل حملتني همومها، ومشاكلها؛ فانعزلت، رغم زحمة عائلتي كنت طفلة وحيدة، ذات يوم، أخذتني أمي لشراء بعض الاحتياجات، وفي أثناء هذه الجولة شعرت بالجوع؛ فطلبت من أمي شراء وجبة من أحد المطاعم بوسط المدينة، وحينما وقفنا منتظرين تجهيزها، شعرت بحركة عند أقدامي؛ فنظرت بخوف شديد، وجدت قطة صغيرة، حينما نظرت إليها شعرت أنها وحيدة مثلي، انحنيت أربت عليها،

ونظرت إلى أمي متوسلة اصطحاب القطة معي، نهرتني أمي، وتصميم وإصرار منها، ورفضاً قاطعاً؛ جعلني أستسلم لقرارها، وقفت ممسكة بوجبتي صامتة، حزينة، ودموع كثيرة رأتها أم ولم تبالِ، تحركت قليلاً، وابتعدت؛ لأجد القطة، وكأنها تطلب مني ألا أتركها، وتلح في حملها، ألقيت الوجبة بيد أمي، وانحنيت لحمل القطة من الأرض؛ ونهرتني أمي، ولم أبالي أنا أيضاً؛ فأنا أريدها وسآخذها، هكذا كانت نظراتي لأمي، وأمام هذا التصميم مني؛ لم تجد أمي أمامها سبيل سوى الموافقة؛ قفزت عالياً من الفرحة مع تعليمات أمي، وبشروط طويلة أهمها النظافة، وافقت علي جميع مطالبها، وأخيراً كائن حي سيشعرني ببعض الحياة.

كانت قطتي باللون البني الفاتح؛ فأسميتها مشمش، وكان مشمش مرفوض من كل غرف أشقائي، لم يجد ملاذاً غير غرفتي، فأصبح ملاصقاً لي أينما ذهبت، مؤنساً وحدتي، ومن مصروفي الخاص أميزه بالوجبات التي يحبها، وبدأ أشقائى يشعرون بأن مشمش يأخذ من وقتهم، حينما تهب على حياة أحدهم عواصف الأزمات، لكني لم أتأخر عنهم كلما احتاجوا لي، وأبي الذى لا يكاد أن يأتي، ثم يذهب لسفر آخر، ومشاكله مع أمي تزداد مع مرور الوقت، هو الوحيد الذي يناديني؛ ليحتضني ويغدق عليّ حباً وحناناً؛ فأفتقده أثناء غيابه، فرح أبي من أجلي عندما رأى قطي وسألني:

- ماذا ستفعلين بمشمش حينما تسافرين إلى جدك وجدتك في الإجازة؟

أجبت بحل سريع:

- سأصحبه معي، لقد كنا نسافر عند جدى وجدتي لأبي لقضاء الإجازة الصيفية في إحدى قرى الريف الجميلة، وغاب مرة أخرى في أسفاره، وذات يوم استيقظت؛ لم أجد قطي بجواري، وناديت عليه:
- مشمش، مشمش!

ولكن لم أجد رد أو مواء كما تعودت، انقبض قلبي الصغير خوفاً، ولم أجد أحداً يشاركني قلقي، وبحثت خارج المنزل وحوله، ولكني لم أجده؛ فعدت وبقلب مملوء بالحسرة؛ جلست على أحد المقاعد، وإذا بقدمي تلمس شيئاً تحت المقعد، بهدوء شديد نظرت؛ وجدت قطي مشمش مستلقي هامداً بلا حراك، استغربت ذلك، وحاولت تحريكها دون جدوي، دموع كالمطر انسابت من عيني؛ لقد مات مشمش، ذهبت مسرعة إلى غرفتي، وأحضرت قطعة من ملابسي، ولففت بها جسد قطتي الهامد، ولم يتوقف بكائى، حتى استيقظت أمي، وجدتني على هذه الحالة، وحين رأيتها انفجرت براكين حزني، وبصوت عالي بكيت على قطي؛ فاحتضنتني أمي، وسألتها:

- ما سبب موتها يا أمي؟

نظرت إلي نظرة حزن وقالت:

- إنها مشيئة الله يا ابنتي!

ذهبنا لدفن قطتي، ودفنت جزءاً كبيراً من مشاعري معها، ها أنا أيتها العائلة تفرغت لحل مشاكلكم! وتزايدت أسفار أبي مع الأيام، ولم نعد نراه سوى أياماً قليلة؛ متعللاً بانشغاله في العمل، دموع أمي الصامتة جعلتني أتأكد من زواج أبي من أخرى، وأدركت أنها لا تريد هدم البيت، واستمرت الحياة، بدأت السنوات الأخيرة في المرحلة الابتدائية تمر عام وراء عام، ذكاء بالفطرة ظهر، وسرعة في التفكير وتفوق، ولاحظ المعلمين، وبدأت المدرسة تخصني بالظهور في الاختبارات، والمنافسات التي تقام بين المدارس وبعضها البعض، كل ذلك جعلني دائماً في الصفوف الأولى، ومنذ اليوم الأول للمدرسة؛ حدث معي شيء غريب؛ فقد خرجت في الصباح سعيدة، مرتدية الزي المدرسي، وفي أثناء نزولي درجات بيتنا، وجدت جنيه؛ فوضعته في جيبي، وبسرعه ركبت سيارة المدرسة، وفي فترة الراحة بين الحصص؛ نسيت أنني لم أخذ مصروفي من أمي، وتذكرت الجنيه الذى وجدته فاشتريت به وجبتي وحلوى، وضحكت في نفسي ضحكة منتصرة، ومنذ ذلك اليوم أجد الجنيه، إما على درجات البيت أو قبل صعودي إلي عربة المدرسة، أو حول بيتنا، أو داخل أرجاء بيتنا، وحينما اسأل الجميع عن صاحبه لا أجد رداً، في النهاية أقنعت نفسي بأنه رزق مقسوم لي، وكنت كل يوم أستيقظ باحثةً عنه متسائلة بتبسم:

- أين سأجدك اليوم أيها الجنيه؟

وكأن جني يلقي به، أو روح قطي مشمش، التي كنت أغدق عليها من مصروفي الشخصي، لم أحتار كثيراً في تساؤلاتي، واستسلمت لهذا المصروف اليومي الذي يأتيني من الغيب!

وتأتي شهور الصيف؛ ونذهب أنا وأشقائي إلى بيت جدي؛ لنتمتع بالجو الصيفي، وأكلات الريف التي لا نراها إلا قليلاً؛ لصعوبة إعدادها، كالفطير المشلتت، والطواجن، وغيرها من أشهى الأكلات، وكانا جدي وجدتي لأبي يغدقان علينا حباً وحناناً، ويأتي أبي إلينا حينما يستطيع، وأمي أحياناً تقضي معنا بعض الأيام وتعود، وعماتي، وأعمامي، وجميع أقارب أبي، يحتفون بنا طوال أيام الصيف.

كانت القرى في المساء تشتهر بحلقات السمر الليلية، فيجتمع الأهل والجيران على أبواب المنازل، ويلهو الأبناء والأحفاد حولهم، كما كان لجيران جدي أحفاد، نلهو معهم بألعابنا البسيطة، كلعبة [الأولى] وهي عبارة عن رسمات بتقسيمات محدودة، ونقفز فوقها بحجر بين أقدامنا، ومن تسقط قدمه على تلك التقسيمات يقع، ولعبة [الأستغماية] فيختفي أحدنا، ويبحث الجميع عنه، ومن يجده يكون الفائز، وغيرها من الألعاب، وتحت أعين الكبار نلهو نحن الصغار، حتى الساعات الأولى من الصباح حتى يتغلب النوم على الجفون الصغيرة؛ فنتساقط كأوراق الشجر، الواحد يلي الآخر لنوماً، نصحو بعده بأوامر من جدي وجدتي للإفطار، والذهاب معهما إلى قطعة أرض زراعية يملكها جدي؛ فنعاونه على قدر استطاعتنا.

دق جرس شقة طارق، وكأنه الموت، يأخذه من الحياة، وبعدها طرقات شديدة؛ فأسرع لفتح الباب، وجد ضياء يخبره بأن موعد الزيارة قد حان، باستغراب سأله طارق:

- أي زيارة؟

رد ضياء:

- زيارة نادية في المستشفى.

وهنا أفاق طارق؛ ليجد أنه جلس يقرأ حتى انتصف اليوم الثاني، والساعة قاربت على الثالثة والنصف تقريباً، وهو في ذهوله، أسرع بارتداء ملابسه، وذهب مسرعاً؛ ليخفي المذكرات، وفي دقائق كان قد استعد، ومع ضياء في سيارته توجها إلى المستشفى، وبادرا بالسؤال عن الطبيب؛ ليقفوا على ما استجد لحالة نادية، كان حديث الطبيب مقتضباً:

- أنها أفاقت لنوبة بكاء هيستيري؛ أضطرهم لإعطائها حقنة مهدئة، ولا زالت تحت تأثيرها.

شعر طارق بأن الزيارة اليوم لا معني لها، لكن قبل مغادرته شيء ما شده لمجرد الاطمئنان عليها، ورؤيتها، توجه إلى الغرفة، وطلبت الممرضة منه عدم المكوث طويلاً، دخل طارق الغرفة، وجد وجهها ازداد شحوباً ودموع محبوسة بين جفونها، واقفة معلنة عن حزن عميق، وهي في تلك الحالة، شعر بأنه ينظر إلى بورتريه؛ ليزيد من حيرته، وتاه للحظات لسؤال هل هي نادية صاحبه المذكرات؟ وأفاق على صوت الممرضة تطلب منه الانصراف، خرج لملقاة ضياء، ولم يستطيع طارق الانصراف؛ استأذن ضياء، وذهب لسؤال الطبيب مرة أخرى، سأله:

- كيف نستطيع مساعدتها؟

رد الطبيب:

- أنها وحدها من تستطيع مساعدة نفسها، لا بد أن تعي ما تمر به، ونحن نقوم بما في أيدينا؛ لضمان استقرار الحالة، وعدم تدهورها.

في خطوات البائس، تحرك طارق نحو ضياء، متوجهان إلى الخارج، في السيارة سأل طارق ضياء:

- كيف كانت تطلب وجباتها؟

رد بأنها كانت تطلبها بالتليفون الأرضي، وهنا لاحت فكره لطارق؛ بأن يقوما بالسؤال في السنترال على أرقام تقوم السيدة نادية بالاتصال بها، ولأن أوقات عمل السنترال تبدأ صباحاً، وتنتهي في حوالي الثانية؛ كان الغد هو موعد لقائهم.

****

الفصل الثاني

ذهب ضياء إلى المطعم وطارق إلى شقته، وقبل أن يقوم بفتح الباب؛ رن الهاتف وكأنه صرخات؛ أوقظته من بعض الأفكار والخواطر، عمته وكعادتها تتصل لتطمئن على أحواله:

- ماذا أكلت، هل نمت العدد الكافي من الساعات؟

وغيرها سيل من الأسئلة، وبعد أن قام بالتوجه لتغيير ملابسه، رن الهاتف مرة أخرى، وهذه المرة شقيقته هيام؛ معاتبة ولائمة لعدم الرد علي رسائل الماسنجر والواتس آب؛ فزاد قلقها، اعتذر طارق لانشغاله ببعض الأمور، ولم يوضح أكثر من ذلك، وأكدت هيام عليه بأنها أرسلت له مبلغ ثلاثة آلاف جنيه، وأنه يستطيع سحب المبلغ فى أى وقت، فهي ترسل له هذا المبلغ كل شهرين؛ لتساعده مع معاش أبيه على المعيشة، لحين الحصول على وظيفة، سألها:

- متى موعد الإجازة التي وعدت بقضائها في القاهرة؟

وعلم أنه لم يتم تحديدها بعد، على وعد بمداومة الرد على الرسائل، وانتهت المكالمة

شعور بالجوع أفاق عليه، وتوجه إلى ما تبقى في البيت من بعض الطعام، وكوب كبير من القهوة، أعده مسرعاً، وتوجه إلى استكمال المذكرات

"ظل سفرنا إلى بلدة جدي كل عام، وتوطدت علاقتنا بأحفاد جيرانهم، وكان بينهم طفل اسمه أمل، واستغربت كثيرا لاسمه، وأخبرتني جدتي بأن أم أمل كانت لا تنجب لسنوات، ونذرت إنها لو أنجبت طفل؛ يكون اسمه أمل سواء فتاة أو صبي، وشقيقة أمل أسمها مايسة، وبألعابنا البسيطة نقضي الأيام، وكان أمل دائماً يضع يده يلمس شعري، ويردد شعرك كالحرير، وكنت أغضب لذلك، على الرغم أنني لم أراه يمثل شيء.

كانت عمتي حينما تراني معهم؛ تقوم بخطفي من وسطهم؛ فيغضبني فعلها، وألححت عليها لمعرفة السبب؛ فأخبرتني عمتي أن أمل أشاع بين أطفال القرية أنه يحبني، وسيعمل جاهداً، ويدخر ليتزوجني حينما يكبر ، ضحكت كثيراً عند سماعي تلك الكلمات، وقلت لعمتي بسخرية:

- يا عمتي هو طفل!

أجابتني:

- وأنتِ ماذا تكونين؟

أخبرتها أنني كبيرة، نهرتني عمتي وقالت:

- سمعة الفتاة تبني من الصغر.

كانت عمتي هي الصغرى في شقيقات أبي، ولم تكن تزوجت بعد، وحينما تقدم إليها شاب من أهالي القرية؛ تردد جدي كثيراً؛ فهي الحبيبة الصغرى، والمدللة لديه، ولكن، وبعد إلحاح من الشاب وعمتي؛ وافق جدي على أن يكون الزواج خلال عام، ووافق الشاب.

ثقلت جفون طارق في النوم، لم يشعر إلا وهو يتسرب إليه: فراح في غفوة.

لم يشعر طارق بنفسه إلا في صباح اليوم التالي، إرهاق بدني ونفسي كبير يشعر بهم، جعل النوم ثقيلاً، ويدوم على غير العادة، بعد طقوسه اليومية؛ اتصل بضياء أكثر من مرة، ولم يجد رد، وبعد دقائق اتصل ضياء وبادر سؤال طارق:

- كم أمامك من الوقت؛ لتكون مستعداً لمقابلتي؟

أتفقا على لقاء بعد نصف ساعة أمام منزل طارق، وصل ضياء بسيارته في موعده، وتوجها إلى السنترال، تقدم طارق إلى أحد العاملين؛ ليستعلم عن الرقم الخاص بمنزل نادية، وعن أى أرقام تقوم بالاتصال بها؟ وكان الرفض هو الرد؛ لأنه يجب أن يكون لديهم إذن من الشرطة؛ لطلب الإجابة عن مثل الأسئلة، ولم يكن أمامهم سوى الأبواب الخلفية؛ لمعرفة هكذا معلومة، وانتظر طارق قليلاً، ثم توجه إلى أحد الموظفين، في أحد جوانب السنترال، وبعد تعارف قصير أخبره باستفساره، وأنه سيدفع له مقابل تلك المعلومات، طلب الموظف الانتظار بعض الوقت خارج السنترال، بعد أن تبادل الاثنان أرقام الهواتف.

جلس طارق بجوار ضياء في سيارته؛ منتظرين اتصال موظف السنترال، ولم يمر الكثير من الوقت، ومع مكالمة سريعة، خرج الموظف ليدس بيد طارق ورقة، وأعطاه طارق بعض المال مقابل خدماته، انسحب الاثنان مسرعان من المكان، وبعد عدة شوارع توقف ضياء على أحد جوانب الطريق؛ ليفتح الورقة ويقرأ ما تم تدوينه بها، وجدوا ثلاثة أرقام؛ رقم للمطعم، ورقم ثاني لدار أيتام واسمه وعنوانه، في ضواحي مصر الجديدة، ورقم ثالث داخل دولة الكويت!

مرة أخرى يدخل طارق في دهاليز وممرات الحيرة، فكل ما يحيط بتلك السيدة، يدعو إلى التعجب، ويغرقه في تساؤلات لا يجد لها إجابة، رن هاتف طارق ليشده مما هو فيه، جاءه صوت لسيدة على الجانب الآخر تسأله:

- الأستاذ طارق؟

أجابها:

- نعم أنا

واستكملت:

- لقد أرسلنا إلى بريدك الالكتروني موعد لمقابلة عمل، ولكن لم يأتينا رد، وأحب أن أوكد أن لديك موعد لمقابلة في التاسعة من صباح الغد.

ولأن طارق قدم في الكثير من المواقع، لم يستطيع تحديد اسم الشركة؛ فطلب من المتصلة عنوان المقر الذي سيتوجه إليه، ودونه على ظهر الورقة التي كانت بيده.

شرح طارق لضياء أنه يقدم الكثير من الطلبات في المواقع، وها هو رد من أحد الشركات، وأن عشقه للحاسبات، والمعلومات؛ جعله يثقله بالكثير من الكورسات، ومنتظراً المكان الملائم لقدراته، وبادر ضياء بالحديث وقال:

- بذلك، لا نستطيع الذهاب إلى دار الأيتام تلك غداً.

فرد طارق بحماس:

- ولماذا لا نذهب اليوم؟

أجابه ضياء:

- أنا منشغل ببعض الأمور، ولكن متفرغ من السادسة مساءاً.

وأتفق طارق معه على اللقاء في ذلك الموعد، واعتذر ضياء عن زيارة نادية؛ نظراً لانشغاله بموعد زيارة للطبيب لمرض زوجته، وافق طارق على أن يقوم هو بالزيارة، وتفرقا على موعد باللقاء مساءاً.

توجه طارق إلى إحدى ماكينات الصرف الآلي؛ ليسحب المبلغ الذي أرسلته إليه شقيقته، وبعدها توجه لشراء مؤن تكفيه من الجبن، والمعلبات، وبعض الفاكهة، عاد إلى منزله محملاً بكنز، يكفيه عدة أيام، بعد حمام سريع، التهم طارق بعض السندوتشات التي أعدها لنفسه، وحتى لا تقطع عمته استرساله، وتواصله مع المذكرات؛ بادر هو بالاتصال بها؛ ولأنه يتفهم حبها، وقلقها عليه، يتقبله بكل رحابة صدر، وفي بعض الأحيان يتحدث إليها بتقنية الفيديو فتكون بذلك أكثر اطمئناناً، بدأ طارق يستكمل المذكرات.

"كنت أستجيب لعمتي رغم غضبي؛ فهي أعلم بأهل القرية مني، ولم تخلو أيام الإجازة من حل بعض المشكلات هنا أو أزمات هناك، وحتى مشاكل عمتي مع خطيبها، بهدوء الجراح وبمشرط الخبرة، أحل عقد الخلافات والأزمات، حتى أن مشكلة كبيرة دبت، قبل أحد الأعياد بين أعمام أبي، كادت تعصف بترابط الأسرة الكبيرة وعجز أبي عن التوافق بين أعمامه؛ فأقترحت عليه حلا لن يخيب، وهو أن نقوم بعد صلاة العيد بالمرور بمنازل العائلة، واحد بعد الآخر؛ للتهنئة بالعيد على أن نصطحب معنا، من كل بيت فرداً؛ فيزداد العدد بيتاً بعد بيت، وكان من بيننا أحد أعمام أبي الطرف الأول في الخلاف، على أن نسير، وكأننا بلا هدف، ونمر ببيت عم أبي الطرف الآخر من الخلاف، وأعدو لأطرق الباب، وكأنني وبدون قصد مني فعلت ذلك؛ فيتفاجأ عم أبي بهذا العدد الكبير من العائلة، وفي يوم العيد، ولن يرى غير أنهم جاءوا للتهنئة، وتمت الخطة كما رسمناها أنا وأبي، وعندما فتح عم أبي الباب، وجد أمامه أكثر من ثلاثين رجلاً مع بعض أطفالهم من العائلة؛ فما كان منه إلا أن رحب بالجميع؛ فكان هذا اعتذار دون مصارحة؛ لجميع الأطراف؛ فتهلل الجميع، ونظر إلى أبي؛ لتقول عيناه:

- يا لكِ من طفلة!

ابتسمت؛ وأنا أرى عم أبي يرحب بالجميع فرداً فرداً، وهكذا وئدنا خلافاً، كان ليزداد ولن ينتهي، حينها احتضنني أبي مبتسماً، وهمس في أذني:

- فلتفخري اليوم لنصرك!

ضحكت كثيراً لقول أبي، مرت بقية أيام الإجازة دون اختلاف؛ فالأيام تشبه بعضها، إما ليالي السمر أمام بيت جدي، أو بعض الزيارات لعائلة أبي الممتدة في القرى المجاورة، كان أسعد أيام الإجازة هو يوم المولد، وهو نوع من الاحتفالات بشخصية دينية مدفونة بقريتنا، وفيه يتجمع أهالي القرية والقرى المجاورة، في ساحة كبيرة معدة للاحتفالات والمناسبات، ويتم تزينها بالرايات والمصابيح، ذات الإضاءة العالية، ويأتي بعض المنشدون الذين يتغنون بمدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- لساعات، ويتم ختام الليلة مع الراوي -منشد ذو صوت عذب- لديه القدرة على سرد قصة كاملة بالغناء، وتلك القصة غالباً ذات طابع درامي حزين؛ فلا مهرب من ظهور دموع الحاضرين في جميع أركان القصة،

كان سكان القرية يتهيؤون لهذه الليلة بالأزياء الجديدة، ذات الألوان الزاهية، وأيضاً بالنوم جيداً قبلها؛ فالسهرة ممتدة للساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

نمت قليلاً عصر هذا اليوم؛ حتى أستطيع السهر، ولأستمتع بقصة الراوي، استيقظت لأجد جميع أشقائي سبقوني؛ للذهاب ولحجز مقاعد متقدمة للمشاهدة، ارتديت فستانا باللون الأزرق مزين بأزهار اللون الوردي الفاتح، وشعري منسدل، خصلاته تميل للون الذهبي القاتم تناسق لم أتعمده، توجهت إلى موقع الاحتفال؛ فوجدت أمل يشير إلى، ويخبرني أنه حجز مقعداً لي في الصفوف الأولى، لم يكن هذا المقعد سوى سور لبيت، يملكه عم أبي، فمن كثرة المترددين لا يجوز للصغار الجلوس على مقاعد؛ الكبار أولي بها، وعلى امتداد السور، يجلس أبناء أعمامنا وأشقائي، وجلست فانتبهت أن أمل لم يبعد عينيه عني؛ فلم أعيره أي اهتمام، وانشغلت بفقرات الاحتفال، وفجأة اقترب أمل؛ ليهمس في أذني:

- أحبك.

نظرت إليه في دهشة وتعجب، فضربت كفاً بكف، ونهرته على فعلته، وأشرت إليه بالتراجع أو الاعتذار، لكنه لم يفعل، ومع نظرة التأكيد في عينيه، قررت المغادرة، ولم أكن أنا بالضعف الذي أحتاج فيه لأحداً؛ لحل مشاكلي أو أزماتي، وجدت أن الحل الأنسب، هو تجنب جميع جلسات السمر، التي تجمعنا بأمل ومايسة، وانغمست في قراءة الروايات، التي جلبتها معي، وهي غنية بالمعرفة، والمعلومات.

انقضت شهور تلك الإجازة، وانقضت المرحلة الابتدائية، بدأت المرحلة الاعدادية، وبداية المراهقة، وجمالي يزداد يوم بعد يوم، مع ظهور علامات الأنوثة على جسدي، مما جعلني أملاً وطموحاً لكل من يقترب مني، من شباب العائلة، لكني كنت صعبة الإرضاء، بعيدة المنال عن الجميع لإصراري على استكمال دراستي؛ فلست أعيش في الريف، حيث بعض الأسر تُزوج الفتاة، وهي في سن صغيرة، غير مدركة لمسؤولياتها، وحقوقها، وواجبات تكوين الأسرة.

في أول يوم من المدرسة الاعدادية؛ دخلت لأحجز لنفسي مقعداً في الصفوف الأمامية كما تعودت، وجدت فتاة تجلس بمفردها في أول مقعد، في مجموعة الصفوف بمنتصف الفصل، توجهت إليها واستأذنت منها بالجلوس بجوارها، لو لم يكن في ذلك إزعاج لها؛ فوافقت دون أدنى رفض، وهي تنظر لوجهي نظرة تائهة، ولم أهتم لهذه النظرات، وبادرت بالجلوس، والتعرف بها:

- اسمي نادية.

هكذا بدأت حديثي، وأجابت هي:

- اسمي نادية.

تصورت في البداية أنها تلقي دعابة ما، ولكننا ضحكنا كثيراً؛ فهذا فعلا اسمها، وكم كانت دهشتنا للتشابه الكبير في الأسماء، واهتمامنا بالجلوس في الصفوف الأولى، وأكملت اسمي نادية، وشعرت بالكثير من الدهشة لحديث نادية رحيم، فلم أعرفها سوى منذ دقائق، وبدأت تسرد لي الكثير عن حياتها الشخصية، لا أعرف لماذا، وأكملت توفى والديها منذ مدة طويلة، بحادث سير، وصديق لأبيها، وهو الأستاذ فؤاد، يتولى جميع شؤونها؛ فهو محامي أيضاً، ويتولى إدارة جميع أملاكها، وقد اختار لها سيدة تقيم معها، إقامة كاملة، وترعى شؤونها، اسمها اعتماد، وأكملت حديثها، وشعرت برغبة ملحة في البكاء، ولكن بنظرة إليها، ذهب هذا الشعور، بلا رجعة؛ فهي تتحدث، وتقص ذلك بسرعة وبساطة، وكأنها ليست طرفاً في ذلك، وكأنها اعتادت الوحدة، وألفت القصة؛ فأصبحت تحكيها من خارجها، وأكملت:

- طيلة هذه السنوات، لم يظهر لي أى قريب، فقط عمي فؤاد.

وانتهى حديث نادية رحيم، بدخول أول المعلمين لهذا اليوم، وبعد إلقاء التحية؛ نظر متفحصاً وناقلاً عيناه بيننا، ولكني لم أهتم لذلك.

التفوق كان عنوان لجميع مراحل تعليمي؛ فلم تختلف المرحلة الاعدادية كثيراً، بل ازدادت باشتعال الحماس بيني وبين نادية رحيم، ومع قلة ظهور أبي، تحملت أمي عنه كل شيء يخص حياتنا، وأكتفي فقط بإرسال النقود، ولكنها لم تغنينا أبداً عن وجوده المفقود، ياللرجال، عجولين، متسرعين، يخسرون الكثير، هكذا كانت نظرتي إليهم!

نظر طارق إلى هاتفه، ليعرف الوقت، وجد أن الساعة تجاوزت الخامسة بقليل، وهكذا قد فوت موعد الزيارة، وأغلق المذكرات ووجد، أنه لابد أن يسرع لملاقاة ضياء في السادسة، استعد طارق بشعور من الندم وتوبيخ النفس، فمن لنادية قاسم سوانا أنا وضياء، وهنا أغلق باب شقته، متوجهاً إلى حيث مكان اللقاء؛ وجد ضياء منتظراً بجوار سيارته السوداء، صعدا متوجهان إلى منطقه مصر الجديدة إلى دار الأيتام تلك.

في حي راق كانت فيلا، تتسم بناءها بالعراقة وطلاء حديث على جدرانها، طرق ضياء الباب، فتحت أحد المشرفات الباب، وسألناها عمن يدير الدار؛ فأشارت إلينا إلى غرفة بنهاية ممر طويل، وحينما دارت أعيننا في المكان، وجدناه نظيفاً، تفوح منه رائحة تشبه التي وجدناها ببيت السيدة نادية قاسم، وأجتزنا الممر الطويل، وطرقنا باب الغرفة؛ ففتحها

رجل في نهاية العقد الرابع من العمر، أنيق المظهر، وعيناه تعطي انطباع بوقار الشخصية وهدوءها، أستأذن منه في بعض من وقته؛ سمح لنا بالجلوس، وبدأ ضياء حديثه بسؤال:

- السيدة نادية قاسم، هل تعرفها؟

وبادرت أنا بسؤاله:

- ما علاقتها بالدار؟

وهنا وجدنا وجهه يكسوه الهلع والفزع، ووقف منتفضاً، وفي خوف قال:

- ما سبب كل هذه الأسئلة؟

ولكنه سرعان ما عاد للهدوء، وجلس منصتاً إلينا، أخبرناه بالحادثة، وما أسفرت عنه من فقدان الذاكرة، بنظرة تكسوها الحزن والقلق، وأين هي الآن؟

أخبرناه بمكانها، عاد إلى الرجل بعض السكينة والهدوء، وقال أنها الراعي المادي الوحيد لهذه الدار، وأكمل:

- حتى أنها ترفض أي مساعدات مالية، أو عينيه.

وامتلأت عيناه بدموع لم تسقط، ولكنه أكمل حديثه؛ فهي تختار ملابس الأطفال بنفسها، من أرقى الماركات، وتأتي كل يوم؛ لتقدم للصغار منهم، وجبات الإفطار بنفسها، وأسعد لحظاتها؛ حينما تحول دموع أحدهم إلى بسمات، وفي أخر زيارة منذ أيام، حررت إليّ شيكاً بما يكفي نفقات الدار لعام مقبل، وهنا اعتدل الرجل في جلسته، وللحظات شعرنا بأنه ذهب بعيد، ثم أكمل، وكأنها كانت تشعر بما سيحدث لها، وعندما سألتها لماذا تفعل ذلك؟ ردت بأنها ربما تسافر، أو كما قالت بالضبط لا تعلم ما تخفي الأيام، وهنا تذكر طارق الوقت الذى تظهر فيه، وتختفي ثم تعود أكثر إشراقاً، وابتهاجا، شعور بغصة في الحلق، انتاب ضياء ولاح على وجهه علامات بالحسرة، لم يخرجا بمعلومات جديدة غير أن الزيارة أضافت توضيحاً عن الشخصية المتفانية الحنونة، لم يشعر ضياء بالرغبة في قيادة السيارة، وأراد التمشية قليلاً، ثم وجدا أحد المقاهي، وجلسا، ودار حديث عن نادية قاسم، وفجأة صرخ ضياء:

- نعمات.

سمع طارق الاسم، ولم يعرف ما علاقته بالحديث، أكمل ضياء منذ أعوام، طلبت نادية قاسم منه أن يرشح لها سيدة أمينة ونظيفة؛ لتعاونها في تنظيف البيت؛ فرشح لها إحدى السيدات المسؤولة عن تنظيف حمامات المطعم، اسمها نعمات، وهنا سأله طارق:

- وكيف لنعمات تلك أن يكون لديها معلومات؟

رد ضياء:

- إنها تعاونها منذ أعوام، من الممكن أن يكون لديها أي معلومات عن أقارب، أو أصدقاء لنادية،

رد طارق:

- ومتى نستطيع الذهاب إليها؟

فجاءه رد ضياء:

- الآن هو الوقت الأنسب؛ اليوم تأخذ نصف اليوم إجازة للذهاب بنجلها من أصحاب الهمم لعيادة العلاج الطبيعي.

في إصرار سأل ضياء عن عنوان نعمات من مسؤول في مطعمه، في اتصال هاتفي سريع، قاد سيارته متوجهاً بهم إلى منطقة العباسية؛ حيث تقطن نعمات، ركن ضياء سيارته بالقرب من بيتها، وبدأ بالسؤال عن العنوان، وبعد عدة شوارع، عثرا على بيتها، مكون من ثلاث طوابق، بشارع عرضه أقل من ثلاثة أمتار، المنزل بمظهر متهالك التكوين، صعدا بعض الدرجات المهترئة، ولاح على ضياء بعض التوتر، حينما رن هاتفه، ووجد أن زوجته هي المتصلة بكلمات مقتضبة، وغير مكتملة أنهى المحادثة، وصلا إلى الباب، وما كاد طارق أن يضع يده عليه؛ حتى اهتز بالكامل، تلاقت أعينهم في قلق، وفتحت الباب سيدة في عمر الثلاثين وأكثر، محتشمة المظهر، تهلل وجهها؛ حينما رأت ضياء واقفاً ببابها، وبترحاب سيدات المناطق الشعبية، وداخل غرفة بسيطة المظهر، ولكن نظيفة، جلسا وغابت قليلاً، ثم عادت وملأت منضدة بجوارهم ببعض العصائر، والحلوى التي أصرت على أن نتذوقها، فهي من صنع يدها، وبحفاوة كبيرة كان استقبالها، وبعد أن هدأ هذا الإعصار من الترحيب؛ بدأت عيناها تتساءل عن الزيارة؛ فبدأ ضياء حديثه:

- متي كانت أخر مرة رأيتِ فيها نادية قاسم؟

نطقت نعمات وعيناها تدور بينهما بقلق:

- كنت هناك منذ ثلاثة أيام، وموعدي القآدم غداً، أذهب إليها في السادسة صباحاً.

فكان سؤالها بعينها، لم تستطيع أن تنطقه:

- لماذا تسألان، ماذا حدث؟

فبادر طارق، وقص عليها ما حدث، وما آلت إليه الأمور، من فقدان نادية للذاكرة؛ ظهرت ملامح الحزن، ووضعت يدها على وجهها وصدرها، معبرة عن هول ما يقصه طارق، وبادر ضياء بسؤالها:

- ألا من أحد من أقاربها، أو أصدقاء لها، يأتي لزيارتها؟

أشارت برأسها يميناً وشمالاً بالرفض، وأكملت قائلة:

- أذهب إليها كل ثلاث أيام عند السادسة صباحاً كما تحب هي، وتكون في استقبالي بشوشة الوجه دائماً، بلا كلمات، ثم لبدأ عملي في تنظيف البيت، وأثناء ذلك أستمع إلى صوت موسيقي تأتي في جميع أرجاء المنزل، نادرة التحدث، تهتم بالمسافات بين قطع الأثاث وبعضها، وبالنظافة؛ حتى أن العطر الذي ننظف به يأتي خصيصاً من إحدى البلدان.

ونحن في حالة إنصات؛ ننتظر أن تكشف كلماتها أى أسرار أو خبايا، أكملت نعمات:

- بعد الانتهاء تسكب العطور في جميع أركان البيت.

وفي لحظة شرود أكملت:

- ذات يوم رأتني حزينة على حال ابني مروان؛ فهو من ذات الهمم، إعاقته تمنعه الحركة؛ فأرسلت في طلب كرسي متحرك متطور، وكانت تعطيني بسخاء، وتشعر بالحرج حينما أشكرها، وتبتعد وتقول حقك يا نعمات، هذا حقك.

بدموع محبوسة، لم تستطيع سجنها أكثر؛ فسقطت منهمرة وراء بعضها، أكملت نعمات:

- هي سيدة عظيمة محترمة، جعلتني أتجاوز الكثير من عقبات الحياة، ولم تكن كثيرة الكلام بقدر الفعل.

غادر ضياء وطارق، وكلمات نعمات داخل عقل طارق:

- أتكون هي صاحبة المذكرات؟

وهنا شعور بالاطمئنان تسرب إلى ضياء، رنين هاتف طارق أخذه لحظات، كانت المتصلة شقيقته هيام؛ فلم يرد على رسائلها منذ الصباح كما تعودت، هدأ طارق من قلقها، وعلى وعد بمواصلة الرد اطمأنت وأنهت حديثها، قاد ضياء سيارته في صمت وهدوء، وطارق جالس حتى اقتربا من مكان المطعم، استأذن طارق في السير قليلاً؛ للتنعم ببعض نسائم الهواء، التي تأتي أحياناً في ليالي الصيف، حاول الربط بين ما يقرأ من مذكرات، وما يسمع طوال اليوم عن نادية، ولكنه لم يجد أى رابط، بل كهوف حيرة مظلمة لا فجر فيها، ومستسلماً عاد إلى شقته في سكينة مختلفة عن الأيام السابقة، أعد بعض الطعام على عجل، دون شهية، وتوجه بعد ذلك إلى فراشه، لديه موعد لمقابلة عمل في الغد، لا بد أن ينال القسط الكافي من الراحة، تذكر المذكرات؛ أحضرها، وفتح صفحاتها، وكان قد قام بثني الورقة التي انتهى عندها من القراءة.

"خُطبت شقيقتي الكبرى، وكان وجود أبي كالصورة التي نضعها؛ لتجمل المنظر أمام الجميع، ثم تختفي من على الجدران، واتفق علي موعد زفافها، وحينما اقترب الموعد، أنهكت أمي بمطالبها الكثيرة بلا نهاية، وكانت وأمي تخرجان كل يوم، و لا يعودا إلا في الساعات الأولى من الصباح، في حاله من الإعياء والإرهاق، وقبل زفاف شقيقتي بأيام، حدثت مشكلة كبيرة؛ كادت أن تعصف بفرحة شقيقتي، وكالعادة أمسكت أطراف المشكلة وبخبرة الأعوام، والكم الهائل من المشكلات، التي مررت بها من حولي، استطعت إيجاد الحل، كانت المشكلة على المبلغ الذي يكتب مؤخراً في عقد الزواج، كان رأي أبي يكتب رقماً كبيراً، وأتى حلي لتلك المشكلة أن يتم كتابه، المبلغ ليس رقماً، بل يكتب [المسمى بيننا] دون تحديد، وحينها رأى الجميع أنه حلًا مناسباً، وجاء يوم الزفاف، وأهدت أمي لشقيقتي، قلادة ثمينة كنت أراها ترتديها في مناسبات رفيعة وهامة، نظرت إلى أمي، وسألتها:

- وأنا يا أمي، ماذا ستهديني؟

قالت:

- حينما يأتي الوقت ستجدين هديتك، ولندرة أصدقائي؛ لم أدعو للحفل سوى نادية رحيم، التي ارتبطت بها وتوطدت صداقتنا، وصلت نادية مع الأستاذ فؤاد بالسيارة، واستقبلتها على أبواب القاعة الجميلة التي قمنا بالحجز فيها، على ضفاف النيل، وجذبتها من يدها إلى الداخل؛ لتتعرف على أفراد عائلتي؛ لقد سمعوا عنها كثيراً، وهذه أول مرة يراها الجميع، وتفاجأت بلمحات الصدمة، التي ظهرت على ملامح الجميع، حينما شاهدوا الشبه الكبير بيني وبين نادية رحيم، حينها قمت بجذبها مجدداً، ووقفنا أمام مرآة كبيرة في البهو الخارجي للقاعة، واتسعت عيوننا من الذهول، وضحكات هيسترية؛ عندما لاحظت كل منا أن اختلاف بسيط حول الأنف والعينين يجعلنا توأمتين، وعرفنا وقتها سبب تسميتنا في المدرسة بالتوأمتين، احتضنت نادية رحيم، وعدنا إلى القاعة؛ لنستكمل فقرات الحفل.

جاء بعد انقضاء الحفل الأستاذ فؤاد؛ ليصطحب نادية بسيارة فضية براقة، ودعت نادية على أن نلتقي يوم السبت في المدرسة، بعد زفاف شقيقتي، حتى نقود أبي اختفت معه، وبدأت أمي في بيع ميراثها من والديها جزءاً بعد جزء، حتى تستطيع الوفاء بالتزامتنا، والبقاء بنا في نفس مستوى معيشتنا.

****

قرض حياة

الفصل الثالث

بعد مرور وقت قصير، طلب شقيقاي باسم وأحمد الإذن من أمي بالسماح لهما بالتقدم لخطبة شقيقتان لأحد جيراننا قبل سفر والدهما، الذي يعمل في إحدى الدول الأوروبية، ويأتي في إجازة سنوية، ولمعرفة أمي بوالدتهما؛ فرحت أمي، ولم ترفض، بل وافقت، وطلبنا تحديد موعد للمقابلة مع أسرة الفتاتين، وتمت مراسم الخطبة لأول مرة دون وجود أبي، وأخذنا نبحث عن المبررات والعلل التي تمنعه من الحضور حتى استطعنا أن نجهز كذبة نضعها بدلا من صورته.

ولولا عمل أشقائي وبعض ميراث أمي؛ لما استطاع شقيقاي من تجهيز تكاليف الزواج.

لم يشعر طارق بنفسه، إلا حينما استيقظ على رنين منبه هاتفه، في صباح اليوم التالي؛ فالأمس كان الأطول والممتلئ بالأحداث، ولديه مقابله عمل بعد ساعتين.

أعد لنفسه إفطاراً سريعاً، والأهم أعد كوباً من القهوة، وانتقى ملابسه بعناية؛ فالانطباع الأول هو الأهم، وردد بعض من الآيات القرآنية التي علمته أمه أن يرددها؛ حينما يكون مقبلًا على الاختبارات.

في الموعد كان طارق يقف في طابور طويل؛ لتسجيل اسمه ضمن المتقدمين لاختبار الوظيفة؛ فالأعداد كبيرة، بدأ دخول المتقدمين، وكان المنتظرون لدورهم ينظرون في أعين المنتهين من الاختبارات؛ باحثين عن مكان لهم، جاء دور طارق، تقدم لدخول القاعة، بعد أن همس لنفسه بالآيات التي يحفظها، وفي غرفة كبيرة جلس وراء كونتر خشبي، خمس أشخاص بأعمار مختلفة، ووسطهم فتاة واحدة، أو سيدة، بدأوا في التعارف والسؤال عن اسمه، رددوا أسمائهم كان اسم الفتاة ندا، وبدأت تسأله بسرعة، ولكن طارق أخذ يرد على جميع الأسئلة بهدوء، وثقة كبيرة؛ فكل هذا مر عليه أثناء الدورات التدريبية التي اجتازها، وكانت تضغط عليه أكثر، وأكثر؛ كلما زادت ثقته؛ حتى تدخل أحد الجالسين ووجه حديثه إلى طارق:

- يبدو أنك تجهزت جيداً أيها الشاب.

رمق طارق ندى بنظرة جانبية، لها الكثير من المعاني، وعلى وعد بالاتصال به، إذا ما تم قبوله.

أثناء مغادرته مقر الشركة، اتصلت عمته كعادتها، حدثها طارق عن الاختبار، وكم التحدي الذي تعرض له، والهجوم الشديد من ندى، ومباغتته بالسؤال وراء السؤال؛ فهدأت عمته من غضبه، وأخذت تدعو له راجية أن يكون من المقبولين.

نظر طارق إلى ساعته؛ وجدها تخطت الواحدة، اتصل بضياء، وحينما رأى ضياء الرقم؛ بشيء من التوتر والقلق رد مسرعاً، واتفقا على أن يلتقيا في المطعم بعد حوالي ساعة، سار طارق حول المكان؛ ليتعرف إليه؛ فوجد أحد الأماكن الصغيرة، التي تقدم بعض المشروبات، وأنواع مختلفة من السندوتشات، طلب كوب من القهوة؛ ليشربه سريعاً، ويتوجه لمقابلة ضياء.

اقترب طارق من المطعم، وجد ضياء يجلس على تلك الطاولة المنعزلة في نهاية المكان، وبجواره ابنه أحمد.

ضياء رجل في نهاية العقد الخامس من العمر، رزين، تبدو على ملامح وجهه خبرة أعوام، توجه طارق إليه، وبعد كلمات التعارف المعهودة؛ غادر ابن ضياء مسرعاً، وبعد القليل من الكلمات تذكر طارق الورقة، التي أخذها من موظف السنترال، ورقم دولة الكويت المدون بها؛ فاقترح على ضياء الاتصال بالرقم شعر ضياء بأنه كلما يغلق باب، يفتح طارق باباً آخر، وكأنه يريد أن يغلق تلك الحادثة بما جاءت به من خسارة مادية ولسان حاله يقول:

- يا ليت كل هذا ينتهي إلى الأبد.

وافق ضياء ممتعضاً، وأخرج طارق هاتفه، وقام بالاتصال بالرقم، وكلما اتصل تأتي رسالة صوتية [هذا الرقم مرفوع من الخدمة] مراراً ونفس الرد، وهكذا جميع الأبواب أُغلقت كما تمنى ضياء، وبارتياح وهدوء تنفس، وعاد إلى الخلف في مقعده، وردد:

- فليفعل الله الخير بإذن الله؛ فلن أقصر مع السيدة نادية أبداً، وكما وعدت، فكل التكاليف المطلوبة سأقوم بسدادها.

وهنا لاح على طارق بعض من الحيرة، لماذا يقدم ضياء التكاليف؟ ولماذا يبدو عليه القلق، حينما نحاول البحث عن أقارب لنادية؟ أبواب من الحيرة، فُتحت أمام طارق دخلها دون أن يدري وجدها جميعا مفتوحة بلا رد.

أصر ضياء على طلب غذاء لطارق على أن يختار له من أطباق المطعم المميزة، وصلت الأطباق وقبلها الرائحة الشهية وكما كان طارق يشتاق لمثل هذه الأطباق الساخنة كاللحم المشوي، وبعض الخضروات، وبجوارها الأرز، وأطباق المقبلات اللذيذة بألوانها الزاهية، التهم طارق وضياء كل ما تقدم من الطعام؛ فشهية طارق سارت كالعدوى إلى ضياء، حاول ضياء تقديم الحلوى؛ فاعتذر طارق مكتفياً بالكم الكبير الذى التهمه من الأطباق، وتأهب للرحيل، وشكر لضياء حسن الضيافة، والاستقبال، وقبل المغادرة تذكرا موعد الزيارة؛ اعتذر ضياء متعللاً الشعور بالثقل، بعد الكم الكبير من الأطعمة، وهو في الحقيقة على موعد مع ابنه لشراء سيارة، تقبل طارق ذلك، وتوجه للمستشفى، وحينما وصل وجد عندها الطبيب المعالج، كاد أن ينصرف بعد توقيع الكشف، والوقوف على أخر ما وصلت إليه حالتها، سار معه طارق قليلاً، وسأله:

- كيف حالها اليوم؟

تحدث الطبيب على أن التقدم في الحالة بطيء، مع ظهور لتجمع دموي في بقعة من المخ، كانت الكلمات وقعها على طارق صدمات متتالية؛ فلقد كان ينتظر أي تقدم في حالتها، ولكن ها هي حالتها تزداد سوءاً، وأكمل الطبيب:

- إلى الآن لا يشكل هذا التجمع أي خطورة بحمد الله، ونتمنى أن يختفي أو يجف ببعض الأدوية، استمع طارق باهتمام، وبعدها توجه لغرفه السيدة نادية قاسم، طرق الباب ودخل؛ وجد أن بعض الضمادات تمت إزالتها، وتبقى التي تلف الرأس، تبسم متقدماً داخل الغرفة، علها تتذكره، ولكنها ردت التحية بابتسامه مهذبة، وأشارت إليه بالجلوس على مقعد بالقرب منها، وبادرت بقولها:

- من المؤكد أنك من أقاربي، أعذر نسياني، وأرجو أن تسامحني!

قالت ذلك وابتعدت بعينيها الممتلئة بالدموع والحزن، لم ينطق طارق؛ فما يشاهده جعل كل كلمات المواساة والصبر تختفي من عقله، حتى أنه شعر أن وجوده سيزيد من حزنها؛ استاذن في الانصراف، ولم ترفض السيدة نادية ذلك، بل وبنفس الابتسامة المهذبة حيته، شعر طارق بالكثير من المسئولية؛ فالسيدة نادية لم يظهر أي من أقاربها، وتسرب إليه شعور أقوى بالحزن على ما وصل إليه حالها، غادر طارق متوجهاً إلى شقته سيراً على الأقدام، وهو في طريقه قابل صديقه، وبادره بعد أن حياه، وسأله عن أخر أخباره:

- لماذا لم ترد بخصوص المشروع؟

فسأله طارق:

- أي مشروع؟

قال الصديق:

- ألم أقوم بتوضيح معالمه لك؟

أجاب طارق بالنفي، واستطرد تامر صديقه:

- أن المشروع يتلخص في اسمه [أجر بسيط]

وهنا بعلامات من التساؤل؛ نظر طارق إليه؛ فأكمل تامر:

- بدأنا المشروع لخدمة كبار السن، الذين يحتاجون إلى خدمات مختلفة، وبعد أن اتسع نشاط المشروع، وذاع صيته لانضمام الكثير من الخريجين إلينا، لم ننتظر الوظيفة، بل أنشأنا مشروعنا الخاص واتفقنا فيما بيننا على تحديد أجور بسيطة للخدمة، ونكتسب الكثير من العملاء، ظل طارق منصتاً؛ فالفكرة جديدة.

وأكمل تامر:

- نلبي جميع الخدمات؛ كشراء أنواع من الأثاث، أو بعض الأدوية القليلة والمتوفرة بأماكن خاصة؛ فذات مرة طُلب منا شراء بدلة لجد، يريد الذهاب إلى حفل زفاف حفيده، وبعد شراءها اتفقنا فيما بيننا على توصيله إلى حفل الزفاف، وكم كان سعيداً؛ لأننا لم ننهي الخدمة عند الشراء فقط، ابتسم طارق بنوع من العرفان، والتقدير لطريقة التنفيذ، وأكمل تامر:

- ذات صباح وصل إلينا طلب بشراء قطة بعمر ولون خاص؛ كهدية لفتاة بعمر التاسعة، وضعنا القطة بصندوق باللون الوردي، بفتحات تهوية، وزينا الصندوق بالملصقات، وبعض الأوراق الملونة، تفاجئنا برد فعل طالبة الخدمة؛ عندما رأت الصندوق والزينة، كادت أن تبكي وقالت:

- أنها كما تمنت بالضبط.

والكثير من الخدمات المختلفة والمميزة، أكمل تامر:

- انضم إلينا يا طارق، فمع التوسع نحتاج إلى خدماتك.

صمت طارق قليلاً، وشرد، وسأل نفسه:

- هل هذا ما يتمنى الاستمرار فيه؟

تنبه على تامر وهو يقول له:

- لا يوجد مجال للرفض، ولكن جاء رد طارق بالاعتذار؛ فهو يتمنى لنفسه مستوي آخر من العمل، تمنى تامر لطارق كل التوفيق، فيما يطمح به لنفسه، على وعد باللقاء القريب افترقا.

صعد طارق درجات المنزل، متوجهاً إلى حمام بارد؛ نظرا للحرارة الشديدة، التي اتسم بها جو هذا اليوم، وضع وجهه تحت الماء؛ عله وهو يتساقط فوق وجهه ينسيه الكثير من الأحداث التي مرت بيومه المزدحم، لقاءه بتامر، ورفضه عرض لعمل مضمون، ولقاء العمل، والضغط الذي حاولت تمارسه ندا عليه، من ملاحقته بأسئلة تعتقد بأنها ستخرسه عن الإجابة؛ فتفاجأت بالرد الواثق منه، وزاد على ذلك الشعور المؤلم الذى رآه يكسو وجه نادية؛ وحينها تذكر المذكرات؛ لعلها تجيب على كل الأسئلة حول نادية، وأنه من الممكن أن يجد بداخلها اسم أو عنوان يسترشد به، توجه إلى لقيمات سريعة، وبعدها كوب كبير لعصير أنهاه، متوجهاً إلى غرفته حيث يضع المذاكرات، فأمسك بها وبدأ:

"أتفق شقيقاي على زفاف في يوم واحد، وأنفقت أمي الكثير مما تتدخر من ميراث والديها غير معترضة، بل كانت سعيدة بأنها استطاعت أن تكمل فرحه شقيقاي، استطاع والد زوجاتهم الحصول لهم على عمل في فرنسا، في نفس البلدة التى يعمل بها، وبعد إتمام الزواج سافر شقيقاي، وكأن أمي تودع قطع من قلبها، وبعد سفرهم بدأت حالات من الشرود تظهر عليها، وترددنا على الكثير من الأطباء، أما أنا أصبحت لا أفارق نادية رحيم سوى ساعات النوم، وفي بعض الأحيان نتحدث طوال الليل؛ فنذهب في النوم سهواً أثناء المحادثة؛ فلم نكن مجرد أصدقاء بالمسمى المعروف، بل تعمقت علاقتنا لأكثر من ذلك بكثير، وكأنما نقرأ أفكار بعضنا، حتى وإن كنا على بعد مسافات، وأصبحت هي الملاذ لي، وأنا لها كذلك، وكم طال حديثنا عن حلم راودنا؛ بأن لا مسافات، ولا ظروف، ولا أشخاص سيفرقون بيننا، وستظل صداقتنا مستمرة؛ لحين تحقيق حلم لنا ظل يكبر يوماً بعد يوم، وهو إنشاء دار لرعاية الأطفال فاقدي الأهل، على مستوى عالٍ، وبخدمة مميزة حتى يستطيعوا عيش طفولة حرمنا منها، كانت نادية رحيم تراعني وتملأ وحدتي، نعم وحدتي؛ فلم أكن موجودة في حياة أحد من أسرتي؛ فلقد أهدروا طفولتي بالانشغال في أزماتهم ومرت تلك الطفولة دون وعي مني، ولعمق تفكيري لم أنتبه للعب الصغار، أو اللهو مثلهم، على أمل في عيش فترة سن الشباب بطريقة مختلفة، ووجدت نادية الفتاة التي تربت وحيدة، حتى بلا صور على الجدران أشد صلابة مني في بعض الأحيان، فأحياناً أكون هشة تكسرني رياح الحزن؛ فترممني نادية ببطء وحب ورضا وصبر؛ فأعود صلبة من جديد، يا لحياتي بدونها!

مرت السنوات حتى المرحلة الثانوية، ولم ننظر كثيراً إلى الشبه الذي أخذ يقرب بيننا يوم بعد يوم، وبنفس الاسم التوأم استمرت أيام الدراسة.

لم يعد في البيت سوى أنا وأمي بعد سفر أشقائي، وفي ليلة باردة من ليالي الشتاء القارص، سمعنا ضجيجاً عند باب البيت؛ في خوف توجهنا مسرعتان، وفتحت أمي الباب، وجدنا أبي عائداً ذليلاً ومريضاً، بعد أن نفذت نقوده ألقت به زوجته الثانية إلى الشارع طالبة الانفصال بالطلاق، ولم تكن أمي تتقبل طلاقها من أبي، وظلت متزوجة منه حتى وبعد اختفاءه

من حياتنا، لم ترحب أمي عندما رأت أبي، وبوجه صلب لا بسمة فيه استقبلته، وأنا كنت قد نسيت أن لي أباً؛ لقد تركني لسنوات، حملنا حقائب أبي الكثيرة، ونظرت أمي إلي نظرة من سيدة لسيدة عصرتها الخبرة، مشفقة عليها من هذه الحالة، عائداً مريضاً كبير السن يحتاج إلى ممرضة أكثر من زوجه، وأيادٍ كثيرة تحمله هنا أو هناك ، ساندت أمي أبي في محنته، ولكنه لم يصمد كثيراً، بعد القليل من الأشهر مات أبي، موتاً صامتاً لا حزن فيه ولا صرخات مني أو من أمي، استغربت نفسي لهذه القوة، أقمنا عزاء كبير، وكانت صدمتنا أكبر من قله المعزين، أين الأصدقاء والأقارب؟ حتى أقاربنا في قرية أبي، فبعد وفاة والديه قلت الاتصالات، ولم نذهب منذ سنوات"

هاتف طارق، وكالصرخات هكذا شعر، تذكر أنه لم يرد على رسائل شقيقته هيام، حينما شاهد رقم المتصل، بالكثير من الأعذار، وعرض اليوم الملئ بالأحداث، ولم يقص طارق على هيام أي شيء يخص نادية، أنهى المحادثة على أن يحاول أن يكون أكثر اهتماماً بالرد على رسائلها، استكمل طارق:

"مرت المرحلة الثانوية بسرعة، وبدأ منذ عامي الجامعي الأول بكلية التجارة يتقدم لخطبتي الكثير من الجيران والمعارف والأصدقاء، وكان الرفض هو الإجابة الوحيدة لي، أما عن شقيقتي فقد اختفت منغمسة في تجارة مع زوجها، لم نعد نراها إلا على فترات تكاد تصل إلى شهور، وشقيقاي تعللا بانشغالهم؛ قليلاً ما يتحدثون لأمي عبر الهاتف عن ضيق الوقت، وعدم استطاعتهم القدوم إلى القاهرة ولو أيام قليلة، وكنت وأمي نتفهم كل من حولنا، ولم نعد نتأثر كثيراً بمبررات هنا أو اعتذارات هناك ، ولماذا أشعر بأي وحدة ولدي نادية رحيم.

تخصصت أنا في المحاسبة، ونادية رحيم في إدارة الأعمال، أنهينا أعوامنا الجامعية بتفوق كعادتنا؛ جعلنا مميزتين وأخذت نادية رحيم الكثير من الكورسات المتقدمة، والدبلومات المختلفة جعلها متميزة في مجالها، وبعدها تقدمت لإحدى الاختبارات التي تقام عن طريق الإنترنت، في مشروع كبير بدولة الكويت؛ جاء الرد سريعاً بالموافقة؛ فهي الأولى على دفعتها، حاصلة على دبلومة من الجامعة الألمانية والامريكية، وكورسات بلغتين بجانب الانجليزية، هما الفرنسية والصينية، استقبلت نادية رحيم الموافقة بالفخر والانتصار، وبكثير من الحزن؛ قريباً سنفترق!

جاء يوم سفرها، وكأنني أودع الحياة، ليس صديقتي؛ فهي ليست مجرد صديقة؛ فهي كل شيء لي فقدته خلال رحلتي في الحياة، وجدته مجتمعاً فيها، وليس بيدي حيلة؛ هذه حياتها ونجاحاتها وطموحها لنفسها، لا أستطيع إلا أن أساندها كما كانت تفعل، ودعتها وودعت معها ابتسامتي وشغفي، حتى الكلمات ودعتها، فأمي دائماً صامتة؛ فقد أكلت السنوات منها، ولم يعد فيها إلا القليل.

تقدمت أنا الأخرى لوظيفة بأحد البنوك، وبعد عدة اختبارات تم قبولي، بعد مرور ثلاثة أشهر على سفر نادية؛ تقدم لخطبتي جار لنا، ولم تكن عندي رغبة بالقبول، إلحاح غريب من أمي وبكاء وإصرار منها على الموافقة"

راح طارق في نوم بهدوء، والمذكرات على صدره، وجاء صباح اليوم التالي، وكما تعود استيقظ لفترة من التريض، والتمشية حول بيته ،

صعد بعدها لدش بارد، وأعد بعض السندوتشات، فقد كان يشعر بجوع مع صداع خفيف، وأحضر كوب القهوة اليومي وجلس بالقرب من النافذة، ونظر على نوافذ بيت السيدة نادية قاسم، والحديقة التي تواجه نافذته، وكم أصبحت الأتربة تعلو المكان، بعد أن كان معتنى به، وشعر ببعض الضيق لما آل إليه حال القصر أو البيت!

اتصل بعمته، ودار حديث بينهما حول الأيام التي سبقت وفاة والديه، وكم كانت تحب أبيه، وترعاه وتعتبره صغيرها، على الرغم من أنه يكبرها سناً، وهنا قالت:

- ليس بالسن تتحدد المشاعر التي بداخلك، بل إحساس بالمسئولية والحب والانتماء.

استمع طارق بإنصات لعمته؛ فهي بمثابة أمه، وطلبت منه أن يعاود الاتصال بها، ولا ينساها كما قالت له.

رأى طارق أنه من الممكن أن يقرأ بعض صفحات من المذكرات:

"وافقت على الخطبة فقط لإرضاء أمي، ليس لوجود أي مشاعر، طلب خطيبي ناجي إنهاء فترة الخطبة سريعاً، ولكني طلبت تمديدها مدة أكثر للاستعداد للزفاف.

رأى حازم أن أمي لا تظهر كثيراً؛ لكبر سنها ولصحتها المتدهورة، حاول السيطرة من اللحظات الأولى على قراراتي والتفرد بي، ولكني لم أستجيب لذلك، قمت بكل شيء منفردة؛ فشقيقتي تعللت بالكثير من الأسباب لانشغالها، فكنت أقدم بدلا منها الأعذار لحازم ، استنفذت جميع أسباب التأجيل، ولم يعد أمامنا سوى تحديد موعد للزفاف، وحتى حينما تم التحديد، وجدت أشقائي يقدمون أسفهم، وصدقاً لم أستمع إليهم، وتركت أمي تواصل سماع الأسباب وراء الأسباب، وأقنعت نفسها بصدق أسبابهم، وأقنعت نفسي بعدم وجودهم.

في صباح يوم الزفاف كنت لا زلت نائمة؛ فقد خضت يوماً طويلاً من التحضيرات والتجهيزات، وجدت يداً تلمس وجهي، ثم تابعتها قبلات كثيرة ففتحت عيني لأجد نادية رحيم صديقتي؛ فضحكت بذهول، وعدم تصديق، قفزت عالياً، وقفزت معي نادية عدة مرات، ثم احتضنتني مطولاً، وكأنها تخبرني عن مدى الوحشة التي نمر بها، ثم اتجهت نحو الحقائب، فتحت حقيبة كبيرة، وطلبت مني اغلاق عيناي، أخرجت فستان زفاف، وحينما وقعت عيناى عليه لم أشعر إلا وأنا أسقط من البكاء والفرح أرضاً؛ فهوت نادية بجواري، وبكينا كل شيء، بكينا الفقد والوحشة والبعد والأحزان، حتى إننا بكينا الشعور الدفين بداخل كلاً منا؛ فكم كنا نرى بعضنا من الداخل وتحزن كلاً منا على ما بداخلنا من مشاعر، لم نبوح بها لأحد بل نطقت عينانا بها، جففت نادية رحيم عيناي من الدموع بيدها، وأخذت تقبلني، ثم قالت:

- هيا استعدي!

فسألتها:- لماذا؟

قالت:

- ليوم حافل أعددته لك.

ونظرت إلى ساعتها، وقالت بصوت كله مرح:

- هيا، سيبدأ اليوم بعد لحظات من الآن.

وتوجهنا إلى أحد أكبر المراكز التجميلية بعدما حجزت لي موعداً عن طريق الانترنت، اتصلت بحازم وأخبرته بالعنوان، ولم تكن المفاجأة الوحيدة بعد الانتهاء خرجنا؛ لأجد سيارة فارهة باللون الأبيض مزينة بالورد الكثيف كما تمنيت، وبداخلها حازم منتظراً خروجي، نظرت لنادية رحيم، وعيناي تقول لها ألف كلمة وكلمة، لم يكن الشكر منها فلم يكن بيننا هذا النوع من الامتنان.

ضحكت كثيراً في ذلك اليوم، وكانت هي وراء بسماتي وضحكاتي، توجهنا إلى إحدى القاعات الكبيرة على النيل كما تحب أسرتي، حضرت شقيقتي حضوراً باهتاً، وجدتها داخل القاعة مع المدعويين، أمي رأيتها في بداية الحفل، ثم اختفت؛ بحثت بعيناى عنها في كل أرجاء القاعة، وعادت عيناى خائبة دون أمي؛ فتعللت نفسي أنها ذهبت لتحضر هديتي كما وعدتني، وكما فعلت مع شقيقتي، وانتظرت ولم تظهر، وقرب الحفل على الانتهاء؛ فسألت شقيقتي؛ فتعللت بأنها شعرت ببعض الارهاق والاجهاد، وتوجهت إلى البيت، كانت شقيقتي تمسك بذراعي تجذبني، وبجواري زوجي متوجهين إلى السيارة وتهمس في أذني:

- لا داعي للقلق.

ودعت نادية؛ فهي على موعد مع السفر مرة أخرى إلى الكويت؛ لتواصل عملها، وتوجهنا إلى الفندق الذي سأقيم به.

في صباح اليوم التالي؛ وجدت اتصالا هاتفياً من نادية، قالت أنها أجلت السفر يوماً آخر؛ تقضيه معي، وإنها بانتظاري في بهو الفندق، نظرت إلى حازم، وقد بدت عليه علامات من القلق والشرود، وقد ارتدي ملابسه وينتظرني، بسرعة ارتديت ملابسي، وتوجهنا إلى بهو الفندق، وجدت شقيقتي ونادية رحيم بملابس سوداء؛ فعدوت إلى شقيقتي، وسألتها دون وعي:

- أين أمي؟

جاءني صمتها، ونظرت نادية رحيم إلى الأرض؛ فعلمت أن أمي ماتت، وأخبرتني شقيقتي أن أمي سقطت داخل غرفتها، وهي تجهز هديتي، وقدمت شقيقتي كيس من القماش الكريستالي اللامع الشفاف، بداخله أقراط جدتي الماسية، ذات الشكل النادر، أغلقت يدي على أخر عطايا أمي، علمت أنه قد تم تأجيل سفر نادية؛ لتحضر معي مراسم الدفن، غادرنا مسرعين لنلحق بركب الجثمان، وكأن أمي تطلب الإذن بالرحيل؛ حتى تهدأ نفسها وروحها أخيراً، دفنت أمي، وأنا أعترف بأنني أدفن أخر القطع الحية بداخلي؛ لأكمل بعدها حياتي بلا حياة، بلا روح، بلا أم"

منبه الهاتف برناته يذكر طارق بموعد زيارة نادية بالمستشفى، توجه إلى المطعم؛ ليلتقي ضياء، وليذهبا معًا، وفي سيارته هذه المرة، وحينما وصلا طلب ضياء مقابلة الطبيب المسؤول عن حالتها؛ فتوجهت إليهم إحدى الممرضات، وأخبرتهم أن الطبيب أمامه دقائق ليصل ومن الممكن أن ننتظر، وأما عن السيدة نادية فقد طلبت عدم إزعاجها!

نظرات تبادلها ضياء وطارق، سأل طارق نفسه:

- هل عادت إليها ذاكرتها؟

وسأل ضياء نفسه:

- هل علمت من أكون؟

وصل الدكتور علاء -المشرف على حالتها- وتوجها إليه؛ فبادره طارق:

- ما الجديد؟

نظر الطبيب إلى ملف ملاحظاتها اليومي، ثم قال:

- لا زال خطر التجمع الدموي مستمر، بل زاد قليلًا؛ ليشكل ضغطاً على مراكز الإبصار، من المحتمل أن يتم إجراء جراحة لاستئصاله، ذهب ضياء لشرود، وعلا وجهه علامات من الضيق ،وأخذ يقول في نفسه:

- ما لي أنا، وهذا كله؟

كلمات تردد صداها بداخله، ولكنه لم ينطقها، لم يكن أمامهم سوى الانصراف، عرض ضياء توصيل طارق لأقرب مكان لمنزله؛ تعلل طارق بالكثير من الأمور التي يجب إنجازها قبل ذهابه إلى بيته، غاب ضياء بسيارته، ومع اتصال هاتفي من زوجته، بالنسبة إليه جاء في غير وقته؛ فسألته متحيرة عما يدور معه، ولمَ هو على غير عادته كثير الشرود، وكثير القلق والتوتر، الذي ساد جميع تصرفاته خلال الفترة الأخيرة، ولكنه حاول الالتفاف حول كل الأسئلة، ورد بإجابات في غير مكانها؛ ليطمئنها ويتخلص من قبضة أسئلتها الملحة.

وأمسك طارق هاتفه؛ فوجد الكثير من الرسائل من شقيقته؛ لم يفتحها ليقرأها، ووجد اتصالين متتالين من عمته، وبدأ بالاتصال بها وكانت أول كلماتها:

- أين أنت؟

أشعرته أنه طفل تائه؛ فضحك، وقال لها:

- موجود، لا تقلقي.

ثم أكملت:

- حاولت هيام أن تتواصل معك، وأرسلت الكثير من الرسائل.

وأكملت بنبرة من الفرح:

- هيام قآدمة في طائرة السابعة والنصف مساءاً، أي بعد حوالي الساعتين من الآن.

واصلت تقول:

- هيام حاولت أكثر من مرة الاتصال بك، ولكن هاتفك غير متاح، كما أنها أرسلت الكثير من الرسائل، ولكنك لم ترد.

وكم كان طارق سعيداً؛ عندما تذكر أنه سيرى آدم ابنها؛ فلم يراه منذ ولادته، ابتسم طارق قليلاً؛ عندما تذكر ذلك، ثم فجأة تذكر المذكرات التي يضعها في أي مكان؛ أنهي حديثه مسرعاً، وبخطوات أقرب للعدو منها للمشي، وصل إلى شقته مسرعاً، أخفى المذكرات بين طيات ملابسه بداخل الخزانة، ومحاولا إظهار بعض الترتيب على المكان، أخفى كل ما استطاع إخفاءه، من ملابس ملقاة في أرجاء شقته، وأوراق، ومغلفات، ومعلبات فارغة، كل هذا وبحركات سريعة، ونظر متأملاً الشكل العام للمكان، ثم أغلق شقته مغادراً إلى المطار.

مرت دقائق لطارق، وهو يقف في طابور المنتظرين للعائدين من إجازتهم، في ذلك الوقت من كثير من البلدان؛ حتى سمع عن وصول طائره لندن، وقف دون شعور؛ وكأنه سيرى الطائرة من مكانه، وقف على أطراف قدميه، تنبه لذلك، ثم أخذ يمشي خطوات للأمام، ثم يكرر ذلك بخطوات إلى الخلف، وكرر ذلك أكثر من مرة، وتدور بداخله المشاعر من شوقه لشقيقته الوحيدة ورؤيته لابنها ولأول مرة:

- كيف شكله؟

فهو لم يرى سوى بعض الصور القليلة له، وفجأة سمع صوت يناديه:

- طارق.

ورأى هيام من أخر الممر، تلوح بيدها وممسكة بيدها الأخرى عربة صغيرة من المخصصين للأطفال، ابتسم طارق ولوح لها، ثم اقتربت وبخطوات سريعة قفز طارق إليها، كاد أن يحملها؛ لولا أنها أظهرت بعض الخجل، وضحكت،

وعبر لها عن قلقه من مظهرها؛ لقد كانت تبدو شاحبة، وأكثر نحافة، وعلامات الإرهاق وقلة النوم واضحة على ملامحها، ثم نظر إلى عربة آدم؛ وجده بين الاستيقاظ والنوم؛ فاقترب وحمله ببطء وهدوء.

طفل بملامح جميلة، وبياض الثلج يلف خدوده المتوردة، تحدث طارق موجهاً حديثه إلى هيام:

- إنه يشبه والده كثيراً، صحيح أين حازم؟

ردت:

- سيأتي بعد حوالي ثلاثة أيام.

بدأ آدم في البكاء، وحاول أن يهدأ من نوبه بكاءه التي لفتت إلينا الكثير من المنتظرين؛ فحملته هيام؛ وبذلك وئدنا تلك النوبة، وبدأنا في الاتصال بإحدى السيارات التي تقدم خدماتها عن طريق الهاتف، وكم انتشرت تلك الخدمة في الآونة الأخيرة، وبالكثير من الأسماء وميزتها في أن العاملين عليها هم شباب على مستوى عال من التعليم، والرقي، والتهذيب في التعامل، وما هي إلا دقائق حتى وصلت السيارة، وتم تحميل متعلقات هيام، وكان كانت دهشة طارق من كثرة الحقائب والمتعلقات؛ وعللت هيام بأن أغلبها لآدم فنظر طارق إليه متسائلاً:

- ألك أنت كل ذلك؟

وراح الإثنين في نوبة ضحك، ووجهت هيام سيل من الأسئلة لطارق، عن أحواله، والوظائف التي تقدم لها، وعن أخبار مشاعره، أين هي؟

فضحك، وبنظره تملؤها التساؤلات:

- لا زالت معي، لم تذهب إلى أي مكان!

وضحكت هيام على طريقه طارق في الرد، وكان آدم يذهب بعينيه بين أمه وخاله، يميناً ويساراً، متسائلاً:

- من هذا؟

فنظر إليه طارق وبدأ في البكاء، أشاح طارق عينيه بعيداً؛ فهدأ مرة أخرى، وصلا، وبعد الكثير من المعاناة في صعود متعلقاتها إلى شقة أخيها، ومنذ الوهلة الأولى لدخولها الشقة، وهي تبدي الكثير من الملاحظات، مع بعض الدعابات، وجدت بعض الأكواب والملاعق فوق الملابس، وحينما نظرت إليه؛ بادر وقال:

- إنك لم تريها قبل مغادرتي!

وهنا ضحك الشقيقان، وبدأ آدم نوبة بكاء مرة أخرى؛ فحملته وهي تنظر لأخيها، وتتحدث:

- لك أن تعرف أنه يبكي كثيراً، دون أسباب؛ ولذلك تبدو على ملامحي الضعف والإرهاق؛ فأنا أم للمرة الأولى مع معاونتي لحازم في بعض أعماله، وأحياناً أواصل السهر دون نوم، إلا سهواً ولبعض الدقائق، وكأنني أسرقها من آدم.

وحينما رددت اسمه نظر إليها، وكأنه يسألها أكُل هذا الحديث عني؟ فسارعت هيام بالضحك على ملامح وجهه المتسائلة، وأكملت:

- ليس الحديث عليك، ولكنه آدم آخر .

ضحك طارق على هذا الوجه البريء، والجميل، والمحير.

وهنا لاح الجوع، وعندما يظهر هذا الشعور؛ تصمت جميع المشاعر الأخرى، تخطى الوقت وأصبحا في الساعات الأولى من الصباح؛ فقد أخذهما الحديث، طلبا بعض الطعام مع ملاحظة التوصيل، ولتأخر الوقت، كان مطعم ضياء قد أغلق، بعد حوالي نصف ساعة، وصلت الوجبات ولكم كان شعورهم بالجوع قوياً، أخذ آدم ينظر بعينيه أثناء ذلك متسائلاً:

- أين أنا، ممَ تأكلون؟

تناوبا الضحك على وجه الطفل المندهش والمتسائل، بعد الانتهاء أتت أهمية كوب الشاي، حاول طارق حمل آدم منذ دخوله كثيراً، ولكن باءت محاولاته بالفشل؛ فكلما يحمله يبكي؛ فيتركه لأمه مسرعاً، حتى تأكد آدم أن طارق لن يستسلم، هذه المرة حمله ورفعه عالياً، ابتسم وأخذ يقذفه مراراً وتكراراً، وهو يضحك بصوت عال، وكم كانت سعادته؛ فتلك الكتلة

الصغيرة، تملكت قلبه منذ أن رآه، وهنا عادت هيام من خبايا المطبخ، حاملة كوبان من الشاي، وطعام خاص بالصغار، وحينما رأت آدم عالياً، وهو يقذفه كادت أن تصرخ، لكنها تمالكت نفسها حتى ينزله من يده، وصرخت به:

- لا يفعل ذلك مرة أخرى.

وبكى الطفل منتظراً ارتفاعه مرة أخرى، ونظر طارق لهيام متسائلاً، ومشيرا لآدم، وهو يبرأ نفسه، ويقول:

- إننا رجال، نفهم بعضنا.

ضحكت هيام مستسلمة لما يريده الرجلان، وأشاحت بنظرها؛ لا تريد أن ترى طفلها مرتفعاً، وعندما تنزل يد طارق للأسفل؛ تتنفس وتهدأ، ويتكرر ذلك، تذوق طارق الشاي بالكثير من الثناء قائلاً:

- منذ سفرك لم أشرب كوباً بهذا الطعم المضبوط.

ابتسمت هيام قائلة:

- غداً ترزق بفتاة جميلة؛ تعد لك كل ما تتمنى.

سمعها طارق، ولم يهتم بما قيل، وبعدها أخذت الطفل؛ لتطعمه، وبدأ التثاؤب، وجفون الصغير تعلن الاغلاق، بعد الانتهاء حملته ببطء واستأذنت للذهاب للنوم، وتمنى لها نوم هانئ ومريح.

دخل طارق إلى غرفته سعيداً، وشعور جميل باكتمال الجزء الأكبر من أسرته، بفرح، وهدوء، ذهب في نوم سريع، ولم تأتي على فكره المذكرات، بعد فترة سمع صوت آدم يبكي؛ بخطوات سريعة توجه إلى غرفتهما؛ وجد هيام لا زالت نائمة؛ فسحب الطفل بهدوء، ملامح صداقة كادت أن تبدأ بينهما، وذهب به إلى الغرفة التي بها الشرفة، فتحها، وبدأ بعض هواء الساعات الأولى من الصباح يتسلل، ومع بعض الهدهدة بطريقة كان قد رآها طارق في بعض الأفلام القديمة وتذكرها؛ راح الطفل في نوم عميق، أخذه طارق متوجهاً إلى غرفته، وقف وسط الغرفة، وتساءل:

- أين أضعه، فوق السرير؟ ببعض من حركات من في مثل سنه ممكن أن يسقط أرضاً!

بعد كثير من التفكير؛ افترش بعض من الأغطية القطنية على الأرض، ووضع الطفل فوقها، ونام بجواره، وقام بتشغيل مبرد الهواء؛ حتى لا توقظ الطفل حراره الجو.

تذكر طارق المذكرات، ولكنه لم يجد أن فكره قراءتها صحيحة؛ الطفل بغرفته، من الممكن أن تدخل هيام في أى وقت؛ استسلم لذلك، وراح في نوم عميق.

على رنين الهاتف استيقظ، وما كان الرنين إلا منبه لوقت التريض اليومي، وفي لحظات من النسيان، سأل نفسه:

- لماذا أنا نائم على الأرض؟

فتذكر الأمس، وأن آدم كان بجواره، وبلحظات من القلق، والفزع، أخذ يبحث عن الطفل في أنحاء الغرفة، حتى أنه بحث أسفل كل شيء، خرج مسرعاً، فسمع بعض الضجيج بغرفة الطعام؛ فوجد شقيقته هيام، وطفلها يضحك أمامها وهي تطعمه، توجه إليهما، وحينما رأت طارق واقفاً أمامها؛ أخذت تضحك، وهي تضع يدها فوق وجهها، فوقف متسائلاً عن سبب ضحكها؟

سردت عليه:

- حين دخلت لأسحب آدم من جوارك وجدته نائماً، وقدمه فوق وجهك!

ضحك طارق هو الآخر، و حينما رآه آدم؛ ابتسم؛ فلقد أصبحا صديقان، أكملت هيام:

- البيت يحتاج إلى الكثير من الطلبات، كالمعلبات، والخضروات والفاكهة، والتوابل، وأشياء أخرى لطفلي.

أدرك طارق أنه سيبدأ مع وجود شقيقته نسيان أشياء كثيرة، كالتريض الصباحي، وهنا تذكر نادية، وماذا سيقول لهيام عنها؟ بقليل من التفكير توصل إلى نتيجة واحدة، لماذا يشغل بالها؛ فهي مجرد إجازة، وستعود مرة أخرى إلى حياتها لتتوه فيها، وهي متعبة لمتابعة طفلها، ومنشغلة بمساعدة زوجها، لا يريد أن يزيد، أو يثقل عليها، بأحزان أخرى، وأحداث لم تعرف عنها شيء

****

الفصل الرابع

استعدا لرحله تسوق طويلة بعض الشيء، وتجولا في مركز تسوق كبير، ملئ بالكثير من البضائع، وانتهت الرحلة بالكثير من الحقائب، ولم يعلم طارق حينما نظر إلى عربة التسوق كيف ستصعد تلك الحقائب إلى الشقة، طلب سيارة بالهاتف، انتظرا لدقائق؛ وصلت السيارة، وقام السائق بالنظر إليه مشفقاً؛ لما تم دفعه، ولكن لم تترك هيام له المجال لذلك؛ لعلمها أن ما اشترته يفوق كل إمكانياته لثلاثة أشهر متتالية، ضحك طارق علي نظرات السائق المشفقة؟ ودار حديث بينه والسائق؛ حينها طلبت هيام من السائق التوقف قليلاً أمام محل للزهور، تركتهم وترجلت، واختارت صحبة متنوعة من الزهور، عادت تحملها بين يديها، وطلبت من السائق مساعدتهم في حمل الحقائب والصعود بها، وهنا نظرت أنا إلى السائق مشفقاً؛ فضحك وضحكت أنا وفهم كلانا ما يقصد .

وصلنا، وجاءت مساعدة السائق لنا كالمنقذ؛ فلقد عدنا بحملة كبيرة من الحقائب البلاستيكية المملوءة بكل ما يحتاجه المنزل، وحمدت الله كثيراً؛ فنحن نقطن بالدور الثاني، وحينما وصلنا إلى المجموعة الأخيرة من الأكياس، وعند باب الشقة شكرت هيام السائق، وأعطته أضعاف ما طلب.

قاما بتفريغ محتويات الحقائب، فبدأ آدم مرة أخرى البكاء؛ فحمله طارق، وكرر بهدوء تهدئته، والغناء له مع القليل من الاهتزاز الخفيف وببطء؛ حتى ذهب في نوم عميق، وقبلات متتالية على جبينه، اختتم ما قام به بإعطائه لأمه، اندهشت هيام لما قام به؛ فنومه في بعض الأحيان يأخذ أغلب وقتها، بل وفي بعض الأحيان يستفيق، ولا ينام، وضعاه في غرفه طارق التي بها مكيف الهواء، وببطء انسحبا، تذكر طارق أنه لم يتصل بعمته؛ فطلبت هيام أن تكون هي المتصلة، فرحت عمتهم كثيراً بالمكالمة، وعلى وعد منهما بزيارتها، والتمتع ببعض أيام بالإسكندرية، ورؤية أبنائها وبناتها انتهي الحديث، وعادا إلى ما كنا يفعلانه من تفريغ الحقائب، وبعدها غابت هيام قليلاً، وعادت بما جاءت به من هدايا لأخيها، نظر طارق لقطع الملابس فهي ما تمني لنفسه وأكثر، ليست فقط خامات جيدة بل ماركات أصلية باهظة الثمن، نظر إليها نظرة تملؤها الكثير من كلمات الشكر والامتنان الكبير؛ لاهتمامها ليس فقط بالسؤال عنه، وهي مشغولة بمسؤولياتها، بل بما يتمنى، ويحلم لنفسه من أنواع وماركات ملابس.

غابت في المطبخ مدة ساعة وأكثر قليلاً، وبدأت الروائح الجميلة، وهنا بكي الطفل؛ فذهب إليه طارق مسرعاً وحمله، وقد أعدت هيام وجبة له، وطلبت من طارق إطعامه؛ فنظر إليها طارق خائفاً، متسائلاً:

- كيف سأطعمه؟

خوفاً من أن يجرح فمه، شجعته هيام، وقالت له:

- بهدوء كما تقوم بجعله يستغرق في النوم؛ فأنت لديك الخبرة أكثر مني.

ابتسمت، وتركت الطعام بين يديه، وغابت مرة أخرى في المطبخ، وبدأ ملعقه، وراء ملعقة، ولجوع الطفل، وفرحة الخال بما يقوم به؛ انتهت الوجبة، وأسرع إلى أمه حاملاً الطفل، ناظراً إليها ومبتهجاً بما أنجزه، فرح حينما رأى هيام تعد أكثر من نوع لأكثر من يوم، وعللت قائلة:

- حتى لا ننشغل بالطعام، ونستطيع التفرغ لرحلات ونزهات نقوم بها.

رن الهاتف، وكان المتصل ضياء؛ ابتعد طارق بهاتفه إلى أقصى بقعة في شقته، بعد أن تبادلا التحية، بادره ضياء بقوله:

- أنور يقول أنه لابد من ذهابنا إلى بيت نادية قاسم مرة أخرى. سأله طارق:

- هل من حقنا الذهاب مرة أخرى، وحتى بعد أن طلبت عدم إزعاجها؟

جاء رد ضياء متعللاً أن ذهابهم هذه المرة لمصلحتها؛ لبحث أكثر دقة عن أي عنوان، أو أسماء لأقارب يساعدونها في الخروج من أزمتها.

سأل طارق:

- وماذا إذا استفاقت وعلمت أننا ذهبنا إلي بيتها دون علمها؟

أجاب ضياء:

- الذهاب هذه المرة على مسئوليته الشخصية، وأنه سيخبر نادية عندما تكون في حالة تسمح بذلك.

اقتنع طارق، وعلى موعد في السابعة انتهت المكالمة.

توجه إلى هيام، نظرت إليه ببعض الريبة والشك، وضاحكة:

- مع من غبت في حديث تليفوني أقرب إلى الهمس؟

قالت جملتها وابتسمت، ضحك ومال برأسه:

- إنه حديث عمل.

بنظرة شك تبسمت قائلة:

- ما هو في الخفاء الآن يظهر غداً إلى العلن.

جهزت مائدة مملوءة بما تشتهيه كل الأنفس مما غاب كثيراً عن هذا البيت، جلس طارق، وبجوع الوحشة للنوع، أكثر من الجوع نفسه، أكل من أصناف كثيرة، وهي تأكل وتنظر إليه بفرحة؛ كلما تذوق صنفاً وتلذذ بالمذاق، استأذن طارق هيام لمشوار مع صديق سيغيب فيه عند السابعة، وردت بصوت عالٍ:

- من هي الجميلة التي اتصلت بك، وستأخذك مني ومن آدم؟ أجاب طارق:

- موعد عمل مع صديق.

فتهللت مبتهجة، وداعية لي بالتوفيق، قام بحمل آدم بعض الوقت، وأخذ الطفل يضحك كلما داعبه خاله، ورددت هيام:

- إنه يضحك معك بروح ومرح لم تعهده قط.

فكان رد طارق:

- أليس الخال كالوالد؟

توجه إلى غرفته، وارتدي ملابسه لموعد السابعة، وبخطى متعجلة توجه إلي المطعم؛ ليجد أنور وضياء منتظرين عند الباب الخلفي المواجه للشارع، الذي يقطن فيه قصر نادية قاسم.

اقترب طارق من ضياء متسائلاً:

- لماذا كلما أتينا إلى منزلها يأتي معنا أنور؟

رد ضياء:

- إن أنور كان ضابط شرطة، ثم درس القانون، وتفرغ للمحاماة والشؤون القانونية.

كأن أنور سمع بعض من حديثهم فأكمل قائلاً:

- لصداقه تربطنا، وعلى الرغم من أنني كثير الانشغال، لا أستطيع رفض أي طلب لضياء

صمت طارق، وأخرج المفاتيح، وببعض الغصة في حلقه سأل نفسه:

- ماذا سيكون وضعه أمام ضابط شرطة سابق حينما يعلم بسرقته للمذكرات؟

سار طارق في أخر الممر المؤدي للحديقة، تائهاً شارداً، انتبه إليهم وهم بداخل القصر، وبدأت الروائح تفوح، وتخرج إلى أعتاب البيت، وتقدم الثلاثة، وأضاء ضياء جميع الأنوار، صعدا إلى الدور العلوي؛ لعلمهم أن الدور الأول خالي من أي أوراق أو معلومات، وتم تقسيم الغرفة فيما بينهم، وكان نصيب طارق الدولاب الخشبي الكبير الذي يتوسط الغرفة، ومن نصيب أنور درجين على جانبي السرير، ومن نصيب ضياء قطعة الأثاث الفريدة ذات الطابع التراثي.

بدأ الجميع في البحث؛ أخرج طارق ما بداخل الدولاب، ووضعه بهدوء على طرف السرير؛ حتى يبحث من خلف الملابس، أو تحتها، وبيأس أعاد جميع القطع، وحينما وصل لعبوة جلدية طويلة يبدو أن بداخلها فستان؛ سقطت ورقة كانت بين ثناياه على أرض الغرفة؛ فانحنى طارق، التقطها، فتحها؛ وجد بها اسم غير واضح، وعنوان بمنطقة في الجيزة، دون محاولة منه لإخفائها، أعطى الورقة لأنور، وكأنه يقدم بلاغاً، بلا حديث، وبصمت، وكأنه يقول لنفسه كفاه ما أخفاه، تفحص أنور الورقة قائلاً:

- الورقة مر عليها أكثر من ثلاثة عشر عاماً، أكثر أو أقل بقليل، تعجب طارق لتحديده المدة بتلك الدقة، رد أنور على وجه طارق المتسائل، بأن كل هذا تتم دراسته داخل كلية الشرطة؛ فمن ثنايا الورقة، ووضوح الخط؛ يستطيع تحديد المدة، دس أنور الورقة بجيبه، وملامح من الرضا عمَ فعل؟ ظهرت على ضياء، مروا على الغرف الست الباقية، زاد القليل من الأتربة، بدأت تعلو الغرف بعد غلق البيت كل هذه المدة، وبنفس البساط الذى يتوسط جميع الغرف، ونفس الغرفة التي تأبى أن تفتح لنا أبوابها، عادوا فصعدوا للدور الثالث؛ آملين أن يجدوا أي شيء، وجدوا باباً يتوسط درجات السلم، طلاء بني قاتم يعلوه طبقة من الأتربة، لم يكن الباب مقفلاً،

فتح أنور الباب، وأطل الجميع برأسه؛ مستكشفًا ما بداخلها، تقدم ضياء ووراءه الجميع، مسح أنور بيده الأتربة، التي تعلو بعض الأثاث، عبارة عن كراسي، ومقتنيات بعضها يبدو في حالة جيدة، موضوع بوسط الغرفة، وتحدث أنور أن الغرفة والرائحة بها تظهر أن المدة التي لم تنظف فيها ليست بعيدة، واستكمل أن من سُمك الأتربة على قطع الأثاث عرفت ذلك، ومن رائحتها أيضاً، ولم نجد وسط هذه القطع من الأثاث أي أوراق أو متعلقات.

هبط الجميع في يأس؛ فأي بيت يكون مملوء بالإيصالات، والمراسلات، والمستندات، أو حتى مجلات وجرائد، وحدث طارق نفسه قائلاً:

- بعناية أخفيت نفسك سيدتي!

وفي محاوله أخيرة لفتح تلك الغرفة المغلقة، وبينما الجميع أمام باب الغرفة؛ نظر طارق إلى ميدالية المفاتيح، وإلى مفتاح باب البيت، متسائلاً، ودارت النظرات بينهم:

- ماذا سيخسرون؟ إنها مجرد محاوله لفتح الغرفة به.

وتفاجأ الجميع؛ عندما باحت الغرفة أخيراً بأسرارها، وفُتحت، ولكن الظلمة منعتهم من معرفة محتوياتها، بحث كلاً منهم عن مكان مفتاح النور؛ فوجده ضياء مخفيًا وراء خزانة ملابس خشبية بجوار سرير توسط الغرفة، وفي الناحية الأخرى من السرير كرسي كبير من النوع الهزاز، وبساط يتوسطها، يبدو أنه من النوع الفاخر، وفي حيره تساءل الجميع:

- من أين البداية؟

توجه أنور إلى خزانة الملابس؛ فهو الخبير بيننا، فتح الخزانة وعلى الرف العلوي، وجد ألبوم صور لطفل وطفلة منذ ولادتهم، لنفس الأطفال عمر السادسة، أو السابعة، وكلمات بمناسبات كأعياد ميلاد، ودارت النظرات بيننا:

- لمن هذه الصور، ولماذا تخفيها داخل خزانة مغلقة؟

سأل طارق نفسه:

- هل كتبت عنهم في مذكراتها، وهل أعترف بسرقة المذكرات؟ لكني لم أعلم أنها مذكرات.

وهنا ردد في نفسه:

- أنت سارق لشيء ليس ملكك.

وعاد طارق خطوات للخلف، وسؤال وراء سؤال؛ حتى امتلأت الغرفة بالغموض والحيرة، وبعدها سحب ضياء غلاف قماشي بتطريز عربي، فتحه؛ وجد بداخله قطعة ملابس لرجل، أو شاب ، وأخرى لسيدة أو فتاة، مطويين بعناية وبرائحة الزهور الجميلة استقبلتنا؛ حينما فتحنا الغلاف القماشي، بهزة ليد طارق من أنور؛ أفاق ورأى ما وجدوه، سأل طارق نفسه:

- هل لنادية أبناء، أو أشقاء؟

لم نجد جميعا أي رد، لكان ظهر بأي وقت بعد اختفاءها كل هذه المدة؟ وبكل الغموض الذى زاد وملأ عقول الجميع؛ قرار جماعي بالمغادرة، وتم إعاده كل شيء إلى مكانه، عرض ضياء مناقشة بعض الأمور مع أنور بالمطعم، وغادر طارق متوجهاً إلى شقيقته.

في طريقه أخذ يسأل نفسه:

- كل هذا الوقت داخل القصر، ولم نخرج سوى بورقة صغيرة، مكتوب فيها عنوان غير واضحة معالمه، ورقم تليفون؟ يا لكِ من سيدة غامضة!

وصل طارق؛ فوجد شقيقته وآدم قد أخذهما نوم عميق؛ فبعد رحله التسوق والإعداد لكمية كبيرة من الأصناف؛ لا بد لها من بعض الراحة.

توجه إلى بعض ما قامت شقيقته بتعبئته بعلب صغيرة؛ كوجبات في الثلاجة، وقام بتسخينها، والتهم البعض وترك الآخر للصباح، وبعدها توجه مباشرةً إلى غرفته، لم يستطيع منع نفسه من قراءة البعض من المذكرات.

"بدأت حياتي الزوجية وحيدة، فارغة، على أمل أن يملأ زوجي هذا الفراغ بالحب والعطف والرحمة؛ فأنا بلا أب وأم، وحتى أشقائي اختفوا من حياتي، ولم يعد لهم ظهور، ولكن لصدمتي وجدت رجلاً يحاول تخويفي من أي طموح أو نجاح،

ويبعدني عن صديقتي نادية رحيم، وقد زادت مشاكلنا بتدخلات أشقائه، وكأنما نعيش في بيت بدون أبواب، لقد تعرت كل أمورنا أمامهم، زاد حزني فلم تكن هذه هي الحياه التي تمنيتها لنفسي وأنتويت النفاد بنفسي من كل هذا، وفي إحدى هذه الخلافات العاصفة، وأثناء ثورة غضبي من فجاجة هذه التدخلات أخذ يعتذر مني ويقدم التوسلات، وقدم الوعود بأنه عازم على قطع جميع أيادي التدخلات بيننا، وأنه مستاء، ووصل لديه الرفض إلى ذروته، وكم كنت ساذجة حين صدقته، أو كنت أريد تصديقه، ولأني بعد بعض شهور علمت بحملي، ولم تقطع تلك الأيادي بل توغلت أكثر ، مررت بشهور حمل في ضعف، وخوف شديدين، أترقب الأزمة وراء الأزمة، وأصبحت أتدرب على التأهب للأزمة القادمة، استعدت مقدرتي على تفادي الخلافات، بل والخروج منها بأقل ضرر، وبدأت أرى الخبث في كل من حولي؛ لإفساد حياتي عمداً، ومع ضعف شخصية زوجي، كان لابد لي من قوة تحميني؛ فاستقويت بنفسي لنفسي، واستعنت بي لأشد أزري؛ فوجدت أسرة زوجي نفوس بشرية مريضة بالبغض لنفسها أكثر من غيرها، وعادت نظرتي المتفحصة لنفس الشخص قبل وجهه، واستطعت فرزهم، نعم فرزت الجميع؛ وجدت الطماع، اللئيم، فنان ومبدع المشاكل، والكثير من الأنفس الشحيحة في الحب، في هذه الأجواء أنجبت طفلي الأول، أسميته يوسف، لم أشعر بفرحة من حولي حتى شقيقتي هنأتني تليفونياً، وأخطأت في اسم ابن شقيقتها الوحيدة الأول، ووصلت هدية نادية رحيم، عباره عن سيارة؛ لتسهل حركتي، والتنقل بطفلي، فرحت كثيراً بها، ولم يكن بيننا كلمات تكفي لشكرها، فهي تعلم أن مجرد مكالمة تعتبرها هي شكراً وامتناناً، ومن اليوم الأول لوصول السيارة أراد زوجي، وبحجة أنني لا أستطيع القيادة أخذها لحين تعلمي، تعللت بإنهاء أوراقها، وتسجيلها حتى تعلمت، وأصدرت رخصتي، وحين صباح وجدها على باب بيتنا، شعرت بفرحته معتقداً أنها له، وجدني متوجهة بها إلى منزل إحدى السيدات التي اتفقت معها على رعاية يوسف؛ لحين عودتي من العمل، لم أهتم كثيراً بمشاعر زوجي، وخيبه أمله في امتلاك سيارتي، تقدمت في عملي، وترقيت نظرا لكفاءتي، ولم تتزوج نادية، ولم ترغب في ذلك، أصبحت هي الخبيرة الدولية، واسمها يتردد في نشرات الأخبار الاقتصادية، كسيدة مؤثرة بقراراتها وتحليلاتها للمشكلات الاقتصادية، وتتم استضافتها في بعض القنوات العالمية للاستفادة من خبراتها، كنت حينما أراها أقفز إلى شاشة التلفاز وأقبلها، مرت الأيام ثقيلة في أحد الأيام، وأثناء توجهي إلى أحد الاجتماعات الخاصة بالعمل، شعرت ببعض الوهن والتعب المفاجئ، تحملت هذا الشعور حتى انتهى الاجتماع؛ فقررت الذهاب إلي الطبيب، طلب الطبيب إجراء بعض الاختبارات، وهنا وبشعور من القلق تملكني خوفا من أن يكون لدي بعض ما يقلق الطبيب، وجاءت النتائج مخيبة لكل آمالي؛ فأنا حامل للمرة الثانية، وسط حياه لا أعلم لماذا استمرت، ولا إلى متى؟ وسط ما أنا فيه لم تبتعد عني نادية، كانت تنتهز الفرصة رغم انشغالها، واختيارها كاقتصادية كبيرة بالأمم المتحدة، تتصل بي في أوقات لا أعلم كيف لها أن تعرف بأنني في حاله من الوهن النفسي، وأحتاج إليها فتخرجني في لحظات إلى عالم آخر.

استمر حملي وزاد وهني أكثر وأكثر، وذات يوم وأنا في طريق عودتي من العمل، إذ بألم شديد، أسفل بطني؛ فاتصلت بزوجي، وقد كان لا زال في عمله، أخبرته بما أمر به من ألم، حينها أشتد ألمي، وبدأت في الصراخ، وكانت إجابته:

- سأحاول التصرف.

نعم كانت هذه إجابته على صراخات ألمي، وبعد دقائق وردني اتصال هاتفي، كان من والدته، وبصوت عالي نهرتني على اتصالي به في عمله، واستمرت تحدثني، وأنا على تلك الحالة من التحمل والصبر؛ لحين عودته من عمله، حينها تساءلت من أخبرها بذلك؟ بالتأكيد هو؛ فهو ابن أمه، لم أشعر بنفسي وأنا أصرخ صرخات مكتومة، لم يسمع لها أحد.

صوت رنين هاتفي جعلني أستفيق لحظات، وكانت نادية رحيم، لم أشعر إلا وأنا أصرخ صرخات متتالية من شدة الألم، وأهتف بإسمها:

- أين أنتِ يا نادية؟

أخذت تهدئني؛ لتعرف ما بي؟ فانفجرت في بكاء بلا توقف، وشكوت لها ما أشعر به، ولم أكن قد أخبرتها بأنني حامل؛ فأخذت تعنفني وقالت:

- حامل للمرة الثانية؟ وسط هذه الحياة!

طلبت مني ألا أقود السيارة، وأنا بهذه الحالة، وأخبرتها بمكان توقفي بالسيارة؛ فطلبت مني أن أنتظر، والمساعدة في طريقها إلي، ولم أنتظر كثيراً، بعد حوالي ربع ساعة وجدت رجلاً يطرق على شباك سيارتي بتهذيب، سألني عن اسمي، السيدة نادية قاسم؟

فأجبته:

- نعم أنا.

فعرف عن نفسه بأنه من طرف نادية رحيم، وكأنني الغريق الذي وجد طوق النجاة، حينها لم أشعر بنفسي وأنا في بهو أحد المستشفيات الكبرى، وحولي العديد من الأطباء، وبعد إجراء الكشف، وعمل ما يلزم من التحاليل والأشعة؛ قاموا

باستدعاء طبيب جراحة؛ لأنني أحتاج فوراً الى استئصال الزائدة الدودية، تهت للحظات، ونظرت حولي؛ فوجدتني وحيدة، من سأخبر بأني سأقوم بعد لحظات بعمل عملية جراحية، طلبت حقيبتي من مساعدة الطبيب، وأخرجت هاتفي، بحثت في الأسماء، أخبر من؟ شقيقتي التي تتعلل بكل الأعذار حتى لا نلتقي، أشقائي المهاجرين في فرنسا، ومنذ سنوات لم أسمع صوت أحد منهم؛ فوجدت يدي دون وعي تضغط على اسم نادية رحيم؛ فجاءني صوتها كالمهدئ، وببكاء مكتوم أخبرتها بحالتي؛ هدأت من روعي وقلقي، وأخبرتني أنه من الواجب ليس إلا؛ حتى لا أقع تحت مشاكل يختلقها زوجي، لا بد له أن يعلم أنني علي مشارف عملية جراحية، أنهت حديثها، وقمت بالاتصال به، أخذ يعنفني، ويصيح بنبرات عالية، تليها كلمات التوبيخ والتأنيب، ولم أشعر بقلقه أو خوفه على قدر فزعه من المظاهر، سمعته وأنا صامتة، جامدة المشاعر، لقد قتل جميع المشاعر التي من الممكن أن أشعر بها؛ بإهماله تارة، وبعده عن كل ما يهمني أو يسعدني تارة أخرى، وفي تلك اللحظة بدأت بداخلي صفحات خفية لحياتي، رسمت لكل شيء بدقة، وصممت على نجاتي بنفسي، ولكن كيف؟ كانت بداية هذه الخطة الهدوء؛ لإجراء العملية الجراحية؛ حتى يكتمل حملي بسلام إن كان مكتوباً له الوجود.

تمت العملية، وبعد أيام قليلة، وجدت أن نادية رحيم قد اتفقت مع فتاة بالإقامة معي، ومساعدتي في أعمال البيت، والعناية بطفلي؛ حتى أستعيد عافيتي، ولكني رجوتها بالاستمرار معي؛ فوافقت، هي فتاة في العشرين، ربما أكثر أو أقل، من أحد الأقاليم، لديها إعاقة خفيفة بقدمها، تفرغت لي وكان اسمها "قسمت" فرحت كثيراً بموافقتها، وكانت نادية ترسل لي الكثير من الأموال بصفة دائمة؛ فقمت بفتح حساب بنكي، وضعت فيه كل النقود التي كانت ترسلها، ومع عملي كمديرة لأحد الأفرع في البنك الذي أعمل فيه، وكان راتبي كبيراً؛ فادخرت بعضه في هذا الحساب الذي لم أخبر به أحد، وقمت بتغيير سيارتي بسيارة أكبر وأحدث؛ تليق بما وصلت إليه من مكانه.

صرخات آدم جذبته من داخل المذكرات؛ ذهب مسرعاً إليه؛ فألقى بنفسه بين يده حين رآه، وفتحت هيام عينيها في تثاقل، وعادت للنوم حين اطمئنت أن آدم بين يديه، وكانت قد أعدت له بعض الوجبات الجاهزة على التسخين فقط؛ فأطعمه، وإذا برنين هاتف هيام المتكرر، وبصوته العالي استيقظت، سمعها تقول:

- متى، الساعة الرابعة عصراً، لماذا التأخير؟ لم تجد طائرات إلى القاهرة، سنكون في انتظارك أنا وآدم وطارق.

توجه إليها، ضحكت حينما وقعت عيناها على طفلها ووجهه ملطخاً بطعامه؛ فضحك طارق، لقد كان شكل الطفل غريباً ومضحكاً، شاركهما الطفل بالضحكات، أخذته أمه لتقوم بتنظيفه، بعد أن تم اخفاء ملامح وجهه، وأخبرته أن زوجها حازم قادم من السفر في طائرة الساعة الرابعة عصراً.

- فرحت بذلك؛ فهو صديق عزيز، لم تنقطع أبداً الاتصالات بيننا، وكان كل منا صديقا للآخر، ومسانداً له في بعض مِحن الحياة التي مرت علينا، وهنا عاد طارق إلى مكانه، وتذكر أنه لم يخفي المذكرات؛ فذهب مسرعاً إلى غرفته خلسة ليخفيها، وأخذ يبحث عنها فوق فراشه، لم يجدها، وبحث في أرضية غرفته، ونظر أسفل سريره؛ فوجدها، يبدو أنه حينما ذهب مسرعاً إلى آدم؛ سقطت منه أرضاً، وقذفتها قدميه بعيداً، التقطها وأخفاها تحت طيات بعض الحقائب في خزانة ملابسه.

بدأت شقيقته بترتيب البيت ترتيباً مميزاً؛ فزوجها سيأتي عصر اليوم، وشعر طارق بنظرات عينيها، وجد الحب ينبض من داخلها، فرح لشقيقته وأخبرها بأنه سيقضي سهرة مع بعض الأصدقاء حتى تستطيع أن تستقبل زوجها العائد بحرية أكثر، لكنها رفضت وأصرت على وجوده، وأضافت مازحة:

- ومن الذي سيحمل آدم؟

فضحك وقال:

- جليسة أطفالك يا سيدتي!

وتبادلا الضحكات

إنها الساعات الأولى من يوم وصول حازم، لابد لهم من وقت للراحة قبل التوجه إلى المطار لاستقباله، ذهبت هيام وآدم في نوم سريع؛ فدخل إلى غرفته وأحضر المذكرات:

"حينما رأى زوجي السيارة ثار غضبه، لا أعلم لماذا؟ وحينما حدثني أجبته أنها من مالي الخاص، إذاً لماذا الغضب؟ فأخذ يتحدث بكلام كثير عن أن لنا طفلين، طفل بيننا والآخر قادم، لابد من عمل حساب للمستقبل، لم التفت كثيراً لغضبه، ومرت شهور حملي الثاني حتى أتممت شهري السابع، وذات يوم وجدت رنات باب بيتي متتالية وراء بعضها؛ فتحت "قسمت" الباب، وجدت رجل يعلو الشيب بعضاً من رأسه، وقفت خلفها وتفحصته، لم تغيب ملامح هذا الوجه عن بالي؛ فهو شقيقي الأكبر باسم، نعم هو؛ لم أشعر إلا وأنا أقذف نفسي بين يديه بلا وعي، ورحبت به؛ فضحك كثيراً على مظهري؛ فبطني ممتلئة، ويقف أمامي وأنا نحيله وهزيلة، مظهره منذ الوهلة الأولى على ملامحه ترتسم أزمة أو مشكلة، ظهر شبحها على جميع لغة جسده، جلس بنظرات تائهة، وما هي إلا دقائق بعد بعض الأسئلة عن الأولاد والأحوال، وبدأ

يقص أزمته، هنا تذكرت نادية الطفلة، التي كانت جنبات بيت أبي تنادي اسمها من وراء أبواب الغرف المغلقة، وتغلق تلك الغرف حينما تقوم بحل جميع مشاكلها، استعدت نفسي الجالسة أمام أخي، وأمسكت بأزمته الكبيرة، وفككت تشابكها خيطاً خيطاً، لكثرة مطالب وتطلعات زوجته وأبنائه؛ تورط في اقتراض مبلغ ضخم، وقدم رهناً على منزله الكبير الذي يقطن به بفرنسا، ولم يتبقى سوى أيام، ويفقد كل شيء، حين يأتي وقت استحقاق رد المبلغ، مع اقتراض مبلغ آخر من أحد زملائه في العمل، جلست صامتة، ثم غبت لحظات، وعدت إليه بورقة مطوية في أحد الأظرف المغلقة، وقلت له:

- ها هو حل أزمتك.

بيدٍ مرتعشة سريعة، متلهفة، فتح باسم الظرف؛ ليجد شيكا بكل المبلغ المطلوب سداده، وقف صامتاً يبحث عن الكلمات، وحدثت نفسي:

- نعم، أنا الشقيقة المنسية، أنا الذي تعللت يوم زفافها بكل الأسباب، ولم تأتي، أنا من كنت تصرخ بإسمها حتى تنقذك من أزماتك، أنا من تتألم وحدها في صمت، دون أن يسمع أحد أنينها، أنا التي دفنت أمي بدونك.

كل ذلك دار في نفسي ولم يخرج منها؛ فنظر باسم بنظرة، وعيناه لن أقول أني وجدت فيها الدموع، ولكني وجدت كلمات شكر نطق بها كل شيء فيه إلا لسانه، وغادر مع وعد برد المبلغ، ولم ألتفت كثيراً إلى كلامه؛ فبرغم أن المبلغ هو كل ما استطعت ادخاره مع بعض ميراثي من أمي، فلقد قمت بهذا وفاءً لذكرى أمي وأبي، وذكرى بيت عشنا فيه جميعاً، وكنت فيه صغيرة السن المسنة، بما تحمله من هموم ومشاكل أشقائها، وشعوري ببيت أخي الذي من الممكن أن يتهدم عن آخره، ومع انصرافه لم أتعمق كثيراً في كلماته الأخيرة؛ لعلمي أنها زيارة لعابر سبيل مر ولن تتكرر!

قبل أن يستسلم طارق للنوم، لم يخطأ خطأه المتكرر؛ فأخفى هذه المرة المذكرات وراح في نوم عميق.

لم يشعر كم مر من الوقت، وعلى ضربات على وجهه من كف صغير، فتح عينيه وجد هيام بجواره، وقد أجلست آدم فوقه؛ وما كان منه إلا أن استمر بضرب وجهه؛ حتى استيقظ ضاحكاً، وقالت هيام له:

- ليس أمامنا الكثير من الوقت.

فنهض قافزاً إلى حمام سريع، تجهز الجميع، واستأجرا إحدى سيارات شركات التوصيل، وكان السائق شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، توجهوا إلى المطار، ولأن هذا التوقيت هو موعد انصراف الكثير من العاملين من أماكن عملهم؛ واجهوا صعوبة كبيرة في الوصول؛ فتأخروا نصف ساعة وأكثر؛ حينما وصلوا وجدوا حازم منتظراً على أعتاب المطار، وحوله الحقائب؛ وحينها تهلل وجه آدم عندما رأى والده، الذي قام بالقفز عدواً، واحتضن ابنه وزوجته في آن واحد، حينما رأى طارق المنظر، متبسما قال:

- ثلاثة أيام فقط هي مدة غيابهم عنك، وهذا هو حالك؟

ضحك حازم هو الآخر قائلاً:

- هم كل ما لي في هذه الدنيا.

رن هاتف حازم، وأشار إلينا بالسير في اتجاه إحدى السيارات، التي كانت في انتظارنا، علمنا أنها تابعة لبرنامج الإجازة الخاص به، وهنا كان استفساري:

- كيف تتم هذه الأمور، وأنت مقيم في بلد آخر؟

تحدث بأنه توجد أقسام في شركته، تقوم بحجز تذاكر الطائرة، وعمل برنامج كامل للزيارة إذا أردنا ذلك.

وبعد حوالي الساعة وصلنا، وحينما فتحت باب الشقة، وقعت عينا حازم على الأزهار؛ تهلل وجهه وأخبره طارق أن هناك المزيد قائلاً:

- مائدة مليئة بما لذ وطاب من الأكلات في انتظارك.

حمل طارق الطفل، بينما توجهت شقيقته إلى المطبخ؛ لتحضير المائدة، وذهب حازم إلى الحمام قبل التهيؤ لالتهام الطعام، اجتمع الجميع حول المائدة، وقبل أن يبدأ حازم بتناول الطعام، قام بتقبيل هيام في جبينها، وشكرها على مشقتها في تحضير هذا الكم من الأكلات؛ ابتسم طارق بسعادة، التهم الجميع الأصناف الكثيرة؛ حتى أنهم وجدوا صعوبة في التحرك من أماكنهم، ولولا حركة سريعة من الطفل كاد أن يسقط فيها، لما استطاعوا التحرك، نهض الجميع ليساعدوا في حفظ ما تبقى من الأطعمة، كان حازم أكثر المساعدين، وحينما وجد الدهشة على وجه طارق؛ ردد قائلاً:

- ألا يكفي ما قامت به من مشقة في إعداد كم هائل من الأطعمة؟ فاطمأنت نفسه أكثر وأكثر؛ عندما رآه يغدق على شقيقته بالحنان، وبعدما انتهينا؛ قدم إليها خاتم ماسي بحجم صغير، حينما رأته فرحت كثيراً، ورددت قائلة:

- هذا الخاتم الذي شاهدته على أحد مواقع التسوق بالإنترنت، وجدني حازم في يوم جالسة مشدودة أنظر إليه صامتة، وقف خلفي يسألني:

- أيعجبكِ هذا؟

كان ردي:

- لا لا، إني أشاهده فقط.

شكرت هيام حازم على هديته الثمينة، وفي نشاط ومرح تسائل حازم:

- أين سنقضي السهرة اليوم؟

وقبل أن يجيب أي أحد منا، رن هاتف طارق؛ ليجد عمته هي المتصلة، ووصل صوتها واهناً ضعيفاً، بسرعة ولهفة سألها:

- سلامتك، ماذا بكِ؟

فكان ردها:

- منذ يومين ولشدة حرارة الجو؛ ارتفع ضغط الدم لدي فجأة، مما جعلني ثقيلة في الحركة، وفي نوم شبه مستمر؛ فأمر الطبيب بدخولي إلى أحد المستشفيات؛ لوضعي تحت الملاحظة الطبية حتى تستقر حالتي.

انتهى الحديث، وبنظرات متسائلة، ولعلم حازم بأهمية عمتهم في حياتهم، وحبها واهتمامها بهما؛ اقترح على الجميع الاستعداد للسفر، وما كان من الجميع إلا التوجه الى غرفهم؛ للاستعداد للسفر، وكان حازم في دقائق قد حجز غرفتان في أحد الفنادق المطلة على البحر مباشرةً، مرت نصف ساعة، غاب فيها الجميع، وجهز طارق حقيبته المحمولة فوق الظهر، وضحك كثيراً حينما رأى هيام تخرج، وتشير إلى حقيبة آدم؛ فهي الأكبر حجماً وسط حقائبهم؛ وعللت ذلك بأنها تريد كل ما يحتاجه طفلها، ولا تريد أن تشعر بأن شيئاً ينقصه، ثم تذكر طارق، هل يأخذ المذكرات معه أم يتركها؟ ولم يأخذ القرار الحيز الكبير حيث أنه قرر تركها.

وجهزت هيام ببديهية المرأة المصرية المعتادة حقيبة ممتلئة بكل تجهيزات السفر، من مشروبات ومعلبات بها بعض الحلوى المجهزة، وتوجهنا إلى محطة القطارات، وبعد قليل بدأت الرحلة، وكانت هادئة؛ نظراً لنوم آدم طول الطريق، ضحك الجميع عندما فتح عينيه في بهو الفندق في صوت واحد، موجهين حديثهم الى الطفل:

- حمداً لله على السلامة!

تبسم الصغير بسمة جميلة، كانت الساعة الحادية عشر مساءًا، تم الاتصال بأحد أبناء عمتهم؛ للاطمئنان عليها؛ فعلموا أنها تحسنت، وغادرت المستشفى إلى بيتها.

لم ينتظروا إلى الصباح لزيارتها، توجه الجميع إلى غرفهم؛ لوضع الحقائب، على أن يلتقوا بعد ربع ساعة في بهو الفندق، وإلى بيت العمة انتقلوا، بحفاوة واشتياق وحنان استقبلتهم عمتهم وزوجها، وبعض أبنائها وأحفادها؛ ولأن الإسكندرية مدينة لا تنام؛ كان توقيت زيارتهم ليس مزعجاً، ودارت الأحاديث أكثرها سردًا لقصص، وحكايات من الزمن الجميل، ومواقف طريفة مرت بهم عبر السنين، ولذاكرة كبار السن في جميع العائلات، التي تنسي الحاضر ولا يغيب عنها الماضي، ولا تمر دقائق إلا وتجد هيام من عمتها فيض من الحب والاهتمام، بمجرد أن تنظر إلى وجهها، وحتى لا يشعروا بالإطالة عليها، وقف الجميع للمغادرة، على وعد بالزيارة طيلة وجودهم بالإسكندرية.

وفي بهو الفندق، وقبل أن ينطق الجميع حول شعورهم بالجوع، صرخات متتالية أفزعتهم من آدم؛ لقد استيقظ فجأة بهذه الحالة؛ فتحسست هيام جبينه، وصرخت بهم:

- حرارته مرتفعة جداً!

شعر الجميع بالخوف، وقام حازم بإجراء اتصال هاتفي لاثنين من أصدقائه المقيمين في الإسكندرية؛ لمعرفة أفضل طبيب أطفال من الممكن التوجه إليه، ولكن لتأخر الوقت لم يكن أمامهم سوى إحدى المستشفيات الخاصة التي تقدم خدماتها طوال أربعة وعشرين ساعة، توجهوا بإحدى السيارات في شوارع المدينة الساهرة، والتي لا تنام، وحينما علم السائق بمرض

الطفل من بكاءه ببراعة؛ استطاع الوصول إلى المستشفى من الشوارع الجانبية والخلفية، وفي إحدى غرف الفحص قام الطبيب بفحص آدم وكان تشخيصه:

- التهاب في الحلق؛ ناتج عن ميكروب، ومع الالتهاب ارتفعت درجة الحرارة!

وصف الطبيب بعض حقن المضاد الحيوي، وغادر الجميع المستشفى إلى أقرب صيدلية؛ لصرف العلاج، واستطاعوا ببراعة معاونة هيام في جعل طفلها يستسلم لأخذ أول حقنة، لكن المشوار لم ينتهي؛ فهم ست حقن في أول يومين، بمقدار ثلاث حقن في اليوم، وصلوا الى الفندق مستسلمين إلى طعام العشاء الذي يقدم فيه، بعد أن تنازلوا عن أحلامهم الكبيرة في تناول وجبة من أنواع الأسماك التي تشتهر بها الإسكندرية ومطاعمها المشهورة، ولم يترك الصغير حضن أمه، ورفض أن يحمله أي أحد منهم.

صعد الجميع إلى غرفهم، وجد طارق بعض الرسائل بهاتفه، منها رد من الشركة التي قام بمقابلة فيها منذ أيام، وكم كانت سعادته أنهم يريدون أن تتم إجراءات تعيينه غداً صباحاً في مقر الشركة عند الساعة العاشرة، هنا نظر إلى هاتفه، وعلى قدر سعادته بخبر حصوله على وظيفة في التخصص الذي يتمناه لنفسه، على قدر حزنه بأنه سيترك أسرة شقيقته ويغادر.

قام بالاتصال بهيام، وأخبرها برد الشركة؛ فتهللت كثيراً من أجله، وأكمل حازم معه الحديث، وقال له:

- حتى نكون في راحة واطمئنان؛ ليتك تكون على اتصال بنا، حتى تصل إلى القاهرة

قام طارق بالاتصال بإحدى شركات التوصيل؛ ليستطيع الوصول إلى أقرب سيارة من موقعه، وكانت أقرب سيارة أمامها خمس دقائق؛ لتصل إليه، وكان هو مستعداً بحقيبته، منتظراً في بهو الفندق، وبعد أن وصلت السيارة؛ بدأت رحلة السفر، وفي الطريق الطويل يقطعه إما النوم، أو محادثة السائق، ولأنه كان يجلس بجواره؛ بدأ معه الحديث بسؤاله:

- منذ متى وأنت تعمل في هذه الشركة؟

رد الشاب الأنيق:

- استلمت العمل منذ عام.

وكان سؤاله التالي:

- ما المؤهل الذي حصلت عليه؟

كان الرد صاعقاً لطارق؛ الشاب متخرج منذ عام مهندساً مدنياً، وأكمل الشاب حديثه أنه لم يجد لديه الشغف والطموح للعمل كمهندس مدني، وأنه حصل على شهادته لرغبة ملحة لدى والده المهندس في الأصل، فوجئ طارق بالرد، وأعجب بتصميم الشاب ونظراته إلى نفسه، الراضية عن عمله، وكان السؤال التالي:

- هل انت راضيا عن عملك؟

رد الشاب في تصميم:

- أعمل حسب رغبتي في الوقت، واليوم الذي أحدده، وأن العمل يدر عليه دخلاً معقولاً يكفي احتياجاته، وسأله الشاب بدوره عن طبيعة تخصصه وعمله؛ فأجاب طارق:

- أنا متخصص في البرمجيات وعلوم الحاسب الألي.

وسأله أيضاً:

- لماذا لم تحاول بناء مشروع خاص بك؟

فأجابه طارق:

- إن تلك المشاريع تحتاج إلى ميزانية كبيرة؛ لا يستطيع تحملها شخص واحد، ولابد من مجموعة كبيرة لعمل مثل هذه المشاريع.

رنين الهاتف قطع الحوار الدائر، المتصل كان المستشفى المحتجزة بها نادية قاسم، تحدث الطبيب بكلمات مقتضبة وسريعة:

- حالتها تزداد سوءاً، ولا بد من خضوعها إلى عملية جراحية؛ لإزالة التجمع الدموي في المخ؛ نظراً لضغطه الشديد على مراكز الإبصار!

سمع كل هذا الحوار في شبه صمت وذهول، وكانوا على مشارف الدخول إلى القاهرة، وبدلا من التوجه إلى بيته، طلب من الشاب التوجه إلى المستشفى، وعند بابها ودع طارق الشاب، دخل والحقيبة فوق ظهره إلى غرفتها؛ منتظراً خروجها من غرفة العمليات.

****

الفصل الخامس

طال انتظار طارق، هو لم يعلم أن تلك العمليات تكون دقيقة، وتأخذ الكثير من الوقت، وربما الساعات، وبالرغم من الإرهاق الجسدي، والذهني الذي كان فيه؛ إلا أنه لم يغمض له جفن، وفي قلق وتوتر؛ وضع الحقيبة، وخرج إلى بهو المستشفى، وسار في الممر المؤدي إلى غرفة العمليات؛ منتظراً الطبيب، مر الوقت ثقيلاً؛ حتى خرج مجموعة من الأطباء من غرفة العمليات ملتفون حول طبيب، بادية على ملامحه الإرهاق والتعب، وتكاد عينيه أن تغلق أبوابها؛ فتوجه طارق إليهم، وقف منتظراً أن ينتهوا من حديثهم، وكان المتحدث ذلك الطبيب قائلاً:

- الساعات القادمة شديدة الخطورة؛ فقد تم إزالة التجمع الدموي، وكان في مكان مراكز الإبصار، ولا نستطيع التكهن بأنه قد يكون ترك أثراً!

وهنا صمت موجهاً نظراته إلى الأرض، ولم يكمل حديثه؛ فسأله طارق:

- ما نوعية الأثر الذي ممكن أن يتركه؟

تنهد الطبيب، وتباطئ في الكلمات قائلاً:

- هي مهددة بفقد بصرها!

لم يستطع طارق أن يحدد مشاعره؛ فشعر بنفسه يعود إلى الخلف، ولم ينطق بكلمة واحدة؛ فتوجه إلى إحدى الحكيمات؛ ليسأل عن السيدة نادية قاسم، أخبرته قائلة:

- ستتوجه إلى غرفة العناية المشددة؛ حتى تتم متابعة حالتها من الأطباء المناوبين.

وتابعت تبلغه:

- إدارة المستشفى تطالب بمبلغ مائة ألف جنيه تحت حساب العملية.

وهنا سأل طارق نفسه:

- من أين سياتي بهذا المبلغ؟

تذكر حديث ضياء بأنه متكفلاً بكامل المصاريف الخاصة بإقامة نادية في المستشفى.

وجد طارق نفسه، ولم يتبقى سوى ساعات قليلة على ذهابه إلى موقع الشركة، ولم تكن فكرة بقائه في المستشفى مع حقيبة فوق ظهره، وغير مستعد بملابس تليق بمقابلة عمل، استسلم لفكرة توجهه إلى منزله، وهو سائراً لا يعرف سبباً لشعوره بالحزن! فمن هي بالنسبة له، كلما اقترب من حياتها، وجد الكثير من الألغاز، والحيرة، والأسئلة، التي ليس لها إجابة، وصل إلى بيته، وكان الوقت المتبقي على موعده -ساعتين ونصف فقط- فقام ببعض الاتصالات بشقيقته، وعمته، وطلب منهما الدعاء له، ثم بدأ بتجهيز ما سيقوم بارتدائه في هذه المقابلة؛ فوقع اختياره على إحدى البدلات ذات اللون الأزرق الداكن، ولم يكن قام بارتدائها منذ مدة، وتهيأ بحلاقة للذقن، ومع حمام سريع وكوب كبير من القهوة نظر إلى ساعته وجدها التاسعة؛ ارتدى ملابسه مغادراً، وفي اثناء ذلك قام بالاتصال بضياء؛ ليقوم على وضعه بأخر المستجدات في حالة نادية، وبدأ حواره معه بنبرة غريبة، وسأله:

- ماذا حدث؟

أخبره بإجرائها العملية الجراحية، والمبلغ المطلوب في إدارة المستشفى.

ذهب ضياء في صمت، ثم عاد صوته، وبطريقة أغرب:

- سأقوم بتجهيز المبلغ، وأقوم بتسليمه إلى إدارة المستشفى.

انتهت المحادثة، وكان متعجباً من هذا الاستسلام من ضياء؛ بدفع هذه المبالغ الطائلة، وبكثير من الدهشة، وعدم الإجابة على كل هذه الأسئلة؛ استسلم لفكرة أنه ربما يكون هناك حسابات مادية بينهما لم يخبره بها، أسرع إلى موعده في الشركة،

وقبل الموعد بحوالي عشر دقائق وصل إلى المقر، واقفاً أمام مكتب الاستعلامات، طلب مقابلة المسؤول عن التعيينات، وكما عودته والدته؛ ردد بعض الآيات القرآنية التي تكسبه الثقة، والقوة، وطلاقة الحديث.

انتهى طارق من تسليم أوراق تعيينه، وكانت عيناه تحاول إسدال ستائر السهر، والذهاب إلى النوم، ابتسم على حاله، وحاول جاهداً مقاومة ذلك الشعور، شكر كل من قام بمساعدته في إنهاء أوراق تعيينه، وتوجه إلى الغرفة التي سيبدأ بها حياته العملية، بين الصحوة والغفوة، سار في ممر طويل وراء الأستاذ علي؛ ليقدمه إلى المسؤول عن تدريبه، وكما سمع أن اسمه الأستاذ أسامة، وبينما شعر أن الممر طويل لا ينتهي؛ اقترب الأستاذ علي من غرفة، وقف وفتحها، وفجأة سرت بجسد طارق صحوة فجائية، وكأن تيار كهربي سار بجسده؛ فتسمرت عيناه على الغرفة التي فُتحت منذ قليل، والفتاة الجالسة وراء شاشه الكمبيوتر، كانت دهشته حينما رآها؛ إنها ندى، وهي التي ستقوم بتدريبه، إنها فتاة وليست رجل كما سمع، لقد سمع الاسم خطأ، إنها ندى أسامة، وبامتعاض دخل، وبعد رحلة تعارف قصيرة؛ رحل الأستاذ علي، ولم يعلم طارق إلى أين يتجه، أخبرته ندى بأن المكتب الآخر في الغرفة خاص به، وبأي متدرب يأتي حديثاً، بنظرة متفحصة من ندى إلى وجهه، قالت بوجه جامد لا حياه فيه:

- من الواضح أنك لم تنم منذ الأمس؛ لن يجدي نفعاً تدريبك اليوم، سأعطيك باقي اليوم إجازة؛ لتأتي ونبدأ من الغد صباحاً عند الساعة الثامنة والنصف بالضبط.

سمع كلماتها كالغريق الذي تم إنقاذه، وما بين الدهشة والتبسم بمعرفتها بحاله؛ وافق دون اعتراض؛ فهو عرض رائع جاء في وقته، كما اقتربت عيناه على الاغلاق الفوري؛ شكرها وغادر.

دخل شقته ناسياً، وغافلاً عن كل شيء، عدم النوم جعله كالسائر أثناء نومه؛ فدخل إلى فراشه دون خلع ملابسه، ألقى بنفسه دون أدنى مقاومة؛ فذهب إلى أعمق درجات النوم.

استيقظ ولم يعرف المدة، أو الساعات التي مضت، كل ما يعرفه أنه نهض بارتياح جسدي كامل، اهتزازات هاتفه جعلته يبحث عنه في المكان الذي يضعه فيه، لكنه لم يجده، مع استمرار بحثه؛ وجده داخل أحد الجيوب، ونظر إلى نفسه، لاحظ أنه لم يبدل ملابسه، وهاتفه لا زال في جيبه؛ أخرج الهاتف ليصمت عن الاهتزاز، وجد أكثر من مكالمة، ورسالة من شقيقته؛ قام بالرد عليها؛ فوجدها في حالة من الخوف والقلق؛ نظراً لاتصالاتها طوال اليوم التي لم يكن لها رد، وكانت أسئلتها المتتالية كالتحقيق البوليسي:

- ماذا فعلت في الشركة، ألم تنظر إلى هاتفك، هل أنت بخير؟

وقبل أن تكمل حديثها؛ أسرع بالرد عليها؛ ليحاول تهدئة السيل الهائل من أسئلتها، وطمئنها على أن التعيين قد تم، وأنه كان متوتراً طوال الليل ولم ينم؛ فاستسلم لنوم عميق بعد عودته، وأخذ يعتذر إليها، وسألها عن طفلها:

- كيف حاله؟

فأخبرته قائلة:

- الدواء كان ذا فاعلية كبيرة؛ وبدأت علامات التحسن تظهر، مدة إقامتنا في الإسكندرية ستطول أكثر مما كان مقرراً، وسوف أتصل بك؛ لأخبرك بوقت عودتنا.

انتهى حواره مع شقيقته، تبسم حينما رأى المكالمات الواردة إليه من عمته، ردد بينه وبين نفسه:

- الآن أصبحت عمتي بخير.

متبسما بدأ الحديث معها، وردد نفس حواره مع هيام، مع الدعوات والدموع لفرحتها الكبيرة بتعيينه، وعلى وعد منه بمداومة السؤال عنها؛ انتهت المحادثة، قبل التفكير في تبديل ملابسه؛ قفزت في ذهنه نادية قاسم والعملية والمستشفى، عزم على التوجه إلى المستشفى، فنظر الي المرآة؛ وجد أن شكله وملابسه مقبولة، وغادر إلى المستشفى، وتوجه إلى غرفة الحكيمات، وسأل عن غرفتها، وكيف هو حالها الآن؟

فأجابت إحداهن:

- هذا النوع من العمليات تعد من الجراحات الدقيقة، التي يستمر المريض فيها تحت الملاحظة لعدة أيام.

استأذن الحكيمة في رؤيتها؛ للاطمئنان عليها؛ وافقت على أن يكون ذلك لمدة دقائق، فتح الباب، وجدها لا يعلم أهي ما بين النوم أو الاستيقاظ، أو هي تحت تاثير مهدئ، جلس بجوارها صامتاً، ينظر إليها مفكراً في غموض حياتها، وما تعرضت له، والأحداث التي ترويها في المذكرات! هل هي صاحبة المذكرات؟ وهل من الممكن أن تكون لأحد تعرفه أو مجرد قصة تكتبها؟ ولكن الأسماء والتشابه والأحداث، مرت دقائق الزيارة، ودخلت الحكيمة لتشير إليه بانتهاء مدتها، وحينما

كاد أن يغادر أخبرته أن الطبيب يريد أن يتحدث لأحد من ذويها؛ توجه إلى غرفة الطبيب، وجد الباب مفتوحاً، وعرف أنه ليس الطبيب الذي كان يشرف على حالتها من قبل، نظر إليه فعلامات الخبرة تظهر على شيب رأسه، ونظارة سميكة فوق عينيه، وتجاعيد بادية بوضوح كبير على تقاسيم وجهه.

استأذن طارق في الجلوس أمامه، وبدأ الطبيب حديثه بسؤال:

- من أنت بالنسبة لها؟

لم يجد أمامه أسباباً للكذب أو التخفي، أجابه بكل صدق بما حدث، واستمع الطبيب إليه بإنصات، وكأنه مريض نفسي، يقص عليه مشكلة صحية يمر بها، حتى أنه لم يقاطعه، تركه يسرد كل شيء ما عدا المذكرات، صمت الطبيب قليلاً، ثم قال:

- لا أدري، أشعر بأن مريضتنا تلك هي من أرادت الذهاب في تلك الزاوية من الظلمة، هي من تريد النسيان، ولا أجد لديها أدنى مقاومة، إنها مستسلمة لكل أقدارها كاستسلام الموتى.

سمع طارق ذلك، وهو لا يفهم بدقة كلمات الطبيب؛ فسأله:

- أبيدها، أتستطيع أن ترد كل هذا عنها؟

أجاب الطبيب بكل ثقة:

- نعم، ببعض العزيمة بداخلها، وبقوة من إرادتها في الشفاء والنهوض، ولكنها لا تريد ذلك!

فسأله طارق:

- وماذا بيدينا نحن لنفعله، لنساعدها على النهوض مما هي فيه؟

رد الطبيب:

- يجب علينا مساعدتها على الأقل في استعادة ذاكرتها، يكفي ما فقدت حتى الآن، من غير الواضح ما ستؤدي إليه هذه العملية الجراحية.

كان من الواضح على الطبيب، تأكده من فقدها للبصر، ولم يخفي شعوره بالخيبة، وعدم الفلاح لسقوط من يمكن نجاته؛ فاعتدل طارق في جلسته أمامه؛ احتراماً لحزنه، وسأله في بعض من الحيرة واليأس:

- ماذا أفعل الآن، وما بيدي؟

رد الطبيب:

- لا بد من العثور على أحد من ذويها، أي أحد يعرفها، يستطيع أن يمد يد العون إليها؛ لجذبها من هذا الاستسلام القاتل!

غادر طارق، وكلمات الطبيب في رأسه :

- أحداً من ذويها، أي أحد!

لم يجد في عقله إجابة على ما بداخله سوى المذكرات، توجه إلى شقته، وإلى حماماً بارداً، وتجهيز بعض السندوتشات التي التهمها على جوع لم يشعر به، وبدأ يقرأ:

" استغربت كثيراً اتصال هاتفي من باسم بعد أيام لسفره يشكرني، ولكنه في محادثة تشبه الرسائل القصيرة يخبرني فيها بأن الأمور جميعها عادت إلى طبيعتها، وانتهت المكالمة.

اكتملت شهور حملي بصعوبة بالغة، ومشقة أكبر؛ انتويت فيها عدم المرور بهذه التجربة مرة أخرى، أنجبت طفلتي الثانية، أسميتها سارة، واهتمت "قسمت" بي وبالأطفال كثيراً، لم أشعر أبداً بأنها غريبة عني، وعن أسرتي، وكأنها التعويض الإلهي عن بعد كل عائلتي، حب وحنان غمرتنا به في كل لحظة ويوم؛ حمدت الله كثيراً على وجودها في حياتي؛ فقد عوضت أطفالي عن أيام غيابي وانشغالي في عملي، ولم أنسى أبداً حين مرض يوسف وسارة بمرض لم نعلم ماهيته، وأخذ منا مأخذاً كبيراً بالتجوال على جميع المراكز الطبية الكبيرة الاسم والمكانة، ولكن دون جدوى، حتى عُدت يوماً من عملي، منهكة القوى عقلياً وبدنياً، وتحدد موعدنا مع أحد الاطباء بكشف جديد، وأمل في علاجهم، وكان الموعد بعد حوالي ساعة، وبدون شعور مني بالوقت والمكان؛ أخذني نوم ثقيل، وأنا في موضعي، جالسة على أحد المقاعد

بملابسي، وحينما استيقظت مذعورة؛ أكون قد فوت موعد الطبيب، وجدت باب الغرفة مغلقًا؛ ففتحته بحركة لا إرادية، وصرخت بإسمها؛ فإذا بها عائدة من خارج المنزل بالطفلين المريضين، بعد أن تم الكشف عليهم حسب الموعد المحدد لنا عند الطبيب، آملين بالشفاء كما وعد إذا تم أخذ الوصفة الطبية كما هي؛ فحينها لم أجد الكلمات لأشكرها، وما كان مني إلا أن قبلت رأسها امتناناً وعرفاناً بصنيعها، وبعد مرور أيام، بدأ التحسن يظهر حتى تم الشفاء؛ برعايتها ورعايتي حينما أتواجد في المنزل، وبلا أي رعاية أو اهتمام من زوجي، ويوم بعد يوم تزداد الفرقة بيني وبينه.

وذات يوم، وبدون أي مقدمات، ترك زوجي عمله؛ لمشاكله المتكررة مع رئيسه المباشر؛ معللاً ذلك بأنه زوج لمديرة كبيرة في أحد البنوك، كيف يكون له رئيساً يكدره ويأمره؟ استطعت أن أفهم من طريقته في الحديث، وتهربه من مواجهة أي أزمة تمر بنا، أنه يفكر في السيطرة الكاملة على جميع نواحي حياتي، فقط لا أكثر، لا أعرف لماذا شعرت فجأة بأنه يقبض بكلتا يديه ممسكاً بقدماي، حتى أنني لم أستطع تحريكهما، شلل تام، تراءى أمام عيني؛ فوجدتني أسأل نفسي:

- من منا لا يوجد في عمله الأزمات؟

وجهت هذا السؤال إليه؛ فعلل، وبرر، وأخذ يقص مواقف وتراهات تكاد تكون بلا معني، أو أساس وهنا تأكدت بأنه يدبر ويفكر في تنفيذ خطة ما، وجاء بها إليّ منتهية التفاصيل والأركان، وعاجزة عن حلها.

في اليوم التالي لتركه العمل استيقظ مبكراً على غير العادة نشيطاً، وطلب من قسمت تحضير الافطار لكلينا، على الرغم أنها أخبرته أنني أكتفي فقط بفنجان من قهوتي الخاصة، التي تعدها إليّ قبل مغادرتي؛ إلا أنه أصر على ذلك، وعندما رأيته متأهباً، ومرتدياً ملابسه اعتقدت أنه وجد عملاً بديلاً، أنهيت قهوتي مع اعتذاري عن الإفطار؛ لضيق الوقت، وحينما هممت بالخروج، وجدته قافزاً يفتح لي الباب، ويخبرني بأنه سيقوم بتوصيلي كل يوم إلى العمل، أو إلى أي مكان أريد أن أذهب إليه، وهنا تحقق ما شعرت به بالأمس، وها هو يحاول تكبيلي، ولكن كما خطط هو في الخفاء، كنت قد وجدت وهيأت حلولاً لما يخططه؛ فبكل تهذيب اعتذرت منه متعللة بأن السائق الذي عينته لي إدارة البنك في الخارج الآن ينتظرني، وخرجت مسرعة، لم أترك أمامه مجالاً للرد، أو فرصة للدخول إلى هذا الجانب من حياتي، مكتفية برؤيته في البيت حين أعود.

توجهت إلى عملي محملة بعبء ثالث فوق كاهلي، لم تبتعد عني نادية رحيم كثيراً، اتصالاتها الهاتفية كانت هي العزاء والبسمة الوحيدة المقدمة دون مقابل، وفكرت في حال زوجي، لم يكن العبء المادي هو ما يقلقني؛ فدخلي يزداد يوم بعد يوم، ولكن الذي يقلقني هو تفرغه الكامل، وعدم وجود ما يشغله؛ مما سيجعل الخلافات تزداد، وستكون الأجواء العامة في البيت غير صحية من الناحية النفسية لأولادي، وبخبرتي القديمة في حل الأزمات؛ فالحل الأمثل لتلك المشكلة، هو إيجاد عمل بديل، بحثت دون علمه؛ حتى وجدت له عمل في إحدى دور النشر الكبرى محاسباً؛ فكان سعيداً بالراتب، وكنت أنا سعيدة بأوقات عمله الطويلة، وسألت نفسي مراراً وتكراراً:

- لماذا أستمر معه؟

يقفز أمامي وجه طفلي عندما تبرز فكرة الهروب، وإحساساً مني بالمسئولية تجاه أبنائي فاني أنجبتهم في هذه الدنيا فلا يحق لي التخلي عن تركيبه أسريه يعيشون وسطها تكون لهم الأمان والحضن الذي يحميهم من شوائب الحياه التي نعيشها وهكذا استسلمت، لكن إلي متى؟ لم أحدد الوقت ولكن لنفسي حق عليّ!

مكالمات نادية كانت هي الباب الذي لم يغلق أمامي باباً من الرحمة؛ فهي بسمة ترتسم على وجهي، والمسكن الذي ارتضيته لنفسي من حياة، نعم اخترتها، ولكن أجبرتني مسئوليتي تجاه أبنائي بالاستمرار فيها.

استمرت الأيام مع مشاكل يفتعلها زوجي، متقنة التأليف والإخراج، وببراعتي كالعادة أتملص منها، وأطفالي بين عيني، أهتم بهما وأرعاهما بالمعاونة مع "قسمت" كنت أخشى دائماً عليهم مما يدور حولي، ويتم تدبيره لحياتي؛ أنهى يوسف المرحلة الإعدادية، وكنت أتمنى له حياة بها بعض الخشونة، ينشأ فيها متحملاً لمسؤولياته؛ فقدمت له في إحدى مدارس الثانوية العسكرية، وبنفسي قمت باستكمال جميع المستندات المطلوبة للتقدم، كاستخراج بعض الشهادات، كنت أذهب معه في مواعيد الكشف الطبي والاختبارات، على أمل أن تكون تلك المرحلة مساعدة له في تقويم شخصيته، ولكن لم يتم قبوله؛ وهكذا فقدت يداً كانت من الممكن أن تساعد في تقويم شخصيته، ربما لأنه يشبه أباه كثيراً، حماساً خافتاً، وطموح شعلته باهتة، هكذا زرع في نفس يوسف الحياة ودروبها وكنت على أمل أن تقوى الحياة العسكرية بعض جوانب الضعف في شخصيته، وقدمت له في إحدى المدارس الخاصة، وبالكاد أنهى الثانوية بعد رسوبه أكثر من عام، بمجموع لا يكفي لدخول أي من الجامعات، التي لطالما تمنيت أن يكون أحد خريجيها، وحتى الجامعات الخاصة، وبعد حيرة وتجوال لم يتم قبوله إلا في أحد الكليات النظرية، وكانت سارة على عكس ذلك، فلقد أظهرت تفوقاً ملحوظاً منذ بداية دخولها المرحلة الابتدائية، محبوبة من معلميها على اختلافهم؛ فأنهت مراحلها التعليمية بنفس التفوق، واصلت استكمالها حتى الثانوية، ولم تدهشنا حين أنهتها بتفوق ملحوظ، عازمة على الدخول كليه الطب، متمنية استكمال الطريق حتى تكون طبيبة متخصصة في المخ والأعصاب، أسعدتني كثيراً؛ فعزيمتها تشبهني في جوانبها، وفي الوقت الذي اقترب يوسف فيه من إنهاء دراسته

الجامعية بعد رسوب ثلاثة أعوام متتالية، وصلت سارة بدراستها في كليه الطب إلى سنة التخصص النهائية، بما تمنته لنفسها، وبقي لها بعض الدراسات التكميلية، وعلى صعيد حياتي لم تختلف كثيراً، في بداية النهاية عن أولها، فزوجي المتطلب، الطامع، كثير الشكوى، والباهت الظهور في حياتنا الأسرية، ولم أدري لماذا سار يوسف على نهج أبيه، أهي الجينات، أم السلوك والعادات، أم العوامل الوراثية مجتمعة؟

في هذا الوقت طلبت "قسمت" رجاء لم أستطيع رفضه، بل سهلت عليها جميع الإجراءات، فكان طلبها هو السفر لأداء مناسك الحج؛ قمت بالحجز لها في أفضل الشركات، ودققت بنفسي في كل تفاصيل السفر، ونسقت لها أيامها، وفجاءتنا سارة بشراء حقيبة أنيقة؛ تجمع فيها قسمت مقتنياتها، فرحت كثيراً؛ لم نغفل أي من احتياجاتها، لقد أعطتني أنا وأسرتي عمرها وصحتها حتى وإن كان بأجر، فليس لهذا الأجر قيمة أمام الأيام والسنين، التي سهرت فيها على أطفالي حينما أكون في عملي، وكم كانت سعادتي حينما قمت أنا وسارة بتوديعها، وهي متأهبة للسفر، همت قسمت بإمساك يدي؛ تريد تقبيلها؛ فخطفت يدي من بين يديها، وبلطف اعتادته مني سألتها:

- متى وافقت علي هذا الفعل، هل من الممكن أن تخبريني، ومتى ارتضيته أنا لكِ؟

وهنا سالت دموع مختلطة بين الخوف؛ فهي ولأول مرة تغادر البلاد، وبين الامتنان لما قدمته لها والذي هو حقها الخالص، سافرت وقد مرت أيامها في قضاء المناسك، وأنا أتابعها لحظة بلحظة على الهاتف، وكم شعرت بقيمة وجودها، وأكون كاذبة إذا قلت أنني ملأت فراغها؛ فلم تكن مديرة منزلي فقط، بل أخت وصديقة لسارة، وشقيقة كبرى ليوسف، تنهره أحياناً حين يقدم على خطأ ما، وبالنظرات فقط كم كنا نتحدث ونتحاور عما يقوم به زوجي، وبالنظرات تشد من أزري حين تسقط نفسي، وتتداعى من أفعاله وإهماله لنا، وحينما حان يوم عودتها؛ أصرت سارة على إقامة حفل استقبال لها، وبالرغم من رفض ناجي إلا إنها أصرت على ذلك، وفوجئت قسمت فور دخولها بهذا الحفل الذي حاولنا فيه تقديم بعض الامتنان لها، وكم افتقدنا تواجدها، قامت هي بفتح حقائبها ولم تنسى أحداً منا بهداياها التي لم تكن بسيطة، مرت أيام كثيرة لم تتغير فيها الحياة، وفي العام الجامعي الأخير ليوسف، كان هو الأصعب على الإطلاق، وأراد السفر إلى خارج البلاد دون إنهاء دراسته، وكانت صدمتي كبيره فيه، وحاولت إثنائه عن هذه الفكرة؛ التي لم أكن مقتنعة بها كلياً؛ فمن الممكن لأي شاب أن يحصل على عمل جيد، ببعض الجهد، واكتشاف ما يبرع فيه، والعمل على نفسه حتى يكون جاهزاً وقادراً لإثبات ذاته.

وكل يوم تزداد مشاحناتي معه، ويستمر هو في نفس الطلب، بل ويقدم الفكرة كاملة بالأحلام، والتمنيات بالزواج من فتاة أجنبية؛ حتى يستطيع الاستمرار في أي دولة يعيش فيها، ولم يكن ردي عليه بالرفض الواضح، بل وجدت أنه لا بد من الحيلة؛ لأخذه من كل هذه الأفكار حتى أصل به إلى ما أتمنى له، فبهدوء، وبطء، وصبر، بدأت باستخراج تلك الأفكار من رأسه، وطلبت منه بعض الوعود، الذي لو قام بالوفاء بها؛ سأقوم بتنفيذ مطالبه كاملة، وكنت أعلم أنه لن يفي بوعوده، وكانت مطالبي غير مغالى فيها، مجرد أن ينتهي من هذا العام بتقدير جيد، وبعدها نقرر الدولة التي يريد السفر إليها، وتجهيز إقامة، والعمل بها، كانت الفكرة مقبولة دون حماس منه، ولم تكن إلا مجرد خطة رسمتها؛ حتى أستخرج كل الأفكار التي بناها داخل عقله، وحدد علي مسارها أحلام وطموحات لن أقبلها له، وبالفعل استطعت تحفيزه باستمرار طوال العام الدراسي على إنهائه، وبشق الأنفس، وبعد محاصرة مني أنا، وقسمت، وسارة؛ تخرج يوسف، لكنه لم يحقق وعده لي بالتقدير الذي طلبته، وهنا سقطت فكرة السفر، استطعت الحصول له على عمل في إحدى الشركات الخاصة، وحينها طلب سيارة، وكان يحدثني منذ مدة عن فتاة يريد الارتباط بها ودون علمه حاولت معرفة أي معلومات عن الفتاة، التي اختارها يوسف لنفسه، علمت أنها هادئة الطباع، من أسرة بسيطة مهذبة؛ فاطمئن قلبي، وأجلت فكرة الارتباط؛ حتى أتأكد من جدية فهم يوسف لفكرة الزواج والارتباط، إنه ليس مجرد عرس نجمع فيه الأهل والأصدقاء، ونمرح ونفرح، ثم يذهب كل منا إلى بيته، ونترك العروسان لضجيج حياة لا يعلموا عنها شيئاً، ومشاكل وخلافات تتفجر كل يوم دون حل؛ حتى أن بعض الزيجات لا تستمر سوى شهور قليلة، ويتم الانفصال، ولم يكن هذا ما أتمناه لولدي، ظل يوسف يلح في طلب الارتباط وأنا أستمر في التأجيل.

****

الفصل السادس

بعد مرور عاماً وأكثر على عمل يوسف، وفي أحد الأمسيات جلس بجواري، وأخذ ينظر إليّ نظرات بلا حراك، وتجاهلت أنا تلك النظرات، ولكنه استمر يقترب بوجهه إلى وجهي، وهنا حدثته:

- ماذا تريد؟

فأشار إلى غرفة؛ ففهمت إنه يريد أن يكون الحوار بيننا منفردين، توجهنا إلى الغرفة، وأغلقت الباب، وبدأ يردد:

- جاءها خاطب يا أمي.

ولعملي أن الفتاة لا تعوض وأنا أعلم أنها تكن له الكثير من المشاعر الطيبة، قررنا أن نتقدم لأسرتها، وتم تحديد موعد لذلك، تفاجئت بمطالب لا حصر لها، تقدمت بها أسرة الفتاة بحجة تأمين المستقبل، وقال والدها أن ابنتهم من طبقة، ونحن من طبقة أخرى، ويخشون تقلب يوسف عليها أو تركها، ووجدت أن في ذلك تكبيلًا ليوسف؛ حتى لا يتهاون بالفتاة، وتعددت المطالب ما بين شقة من أربع غرف على أن تكون باسمها، وخاتم ماسي بحجم محدد، استمعت إلى تلك الرغبات، ولم أجد أمامي سوي الموافقة؛ لعلمي ما بيني ونفسي أنها ستعاني مع يوسف، كما عانيت أنا مع والده، وأن به الكثير من الجوانب الباهتة في شخصيته، وافقت وتم تحديد موعد للزفاف، وقبل الزفاف بساعات اختلق والد الفتاة خلافاً غريباً، محاولاً إفساد الزفاف؛ ولأن لكل شيء حل عند نادية؛ استطعت ببراعتي المعهودة حل هذا الخلاف، وتم زفاف يوسف، وفي جلسة خاصة قبل زفافه بأيام، ولأكون صادقة مع زوجته حدثتها عن جوانب شخصيته، وقدمت لها وصفة بسيطة تستطيع من خلالها شحذ همته، وتقويم جوانب شخصيته الواهنة.

أنهت سارة أعوام الدراسات التكميلية؛ بتفوقها المتميز، وفي حين أنني لم أستفيق من زواج يوسف وتكاليفه، وجدت ساره تحدثني في خجل عن زميل لها يطلب الإذن منا في التقدم لخطبتها؛ فطلبت منها مهلة حتى لا أتسرع بالموافقة، وسألت عنه، وعن نشأته، وأسرته، ودار حديث خفي في نفسي، بأن خطتي الخفية تكاد أن تكتمل، جاءت المعلومات عن زميل سارة بأنه من أسرة ميسورة، طبيب ناجح وطموح، يلح ويحلم بالسفر إلي الخارج، مهذباً، وكأنني كنت ألهث وألهث حتى توقفت، وهدأت دقات قلبي أو كنت أسير طريقاً طويلاً دون مجرد رشفة صغيرة من الماء، وها أنا وجدتها؛ فبللت طريقاً مليئاً بالجفاف، ووسط ما أنا فيه تلقيت خبر وفاة شقيقي الأصغر الذي لم أره منذ أكثر من عشرون عاماً، مجرد أخبار أعرفها من هنا أو هناك، اتصالًا هاتفياً من ابنه عامر؛ ليخبرني بأنه توفى بعد مرض سريع، قدمت له العزاء، وسألته أن كان هناك أي شيء أستطيع تقديمه؟ فشكرني وأنهى اتصاله، وجدت تساؤلات تدور:

- لماذا اتصل، ومن أين يعرفني، ولماذا الآن، وهل هو في القاهرة، أم في الخارج؟

فالصدمة ألجمت أوتار أفكاري، فنظرت إلى الهاتف لمعرفة من أين قام بالاتصال بي، علمت أنه اتصال من القاهرة؛ فقمت بمعاودة الاتصال به، وسألته:

- هل تمت مراسم الدفن؟

أخبرني أنهم يقومون بأنهاء المراسم الآن، واستأذنته في انتظاري، وأسرعت إليهم، وتم كل شيء، وودعت شقيقي الذي لم أراه منذ سنوات، ولكنني تذكرته حينما رأيت بعض ملامحه في وجوه أبنائه، وعلمت في وسط كل ذلك أن شقيقتي الكبرى، والتي لم تكن قد أنجبت هي الأخرى، توفيت منذ عام، ولم يخبرني أحد من أسرتها بذلك، وشددت على عامر أنني موجودة في كل وقت لأي شيء يحتاج إليه، وما عليه إلا الاتصال على الفور، وإن لم يكن بيننا اتصال في السابق، أنا موجودة، وفي خدمتكم وقت ما تشاءون، وعدت إلى منزلي، مراسم دفن شقيقي جعلتني أستعيد كل من ذهبوا ورحلوا عني، أولهم أبي، ثم أمي، شقيقي الأصغر، وها هي شقيقتي الكبرى، رحلت أيضاً في صمت، جلست في غرفتي حزينة، لم أخبر أحداً بشيء، ولا حتى ناجي، غيرت ملابسي فور عودتي، وكنت حددت موعد لمقابلة زميل سارة الذي حدثتني عنه، وقمت بمراجعة التجهيزات مع قسمت؛ لاستقبال الضيف، ولم يكن ناجي متواجداً بين كل هذه التجهيزات، وجاء زميلها مبتسماً، وبملامح لا أعرف لماذا تذكرت حفيد جار جدي أمل في بلدتنا القديمة؟ بنفس نظرة الإصرار، والتحدي، والطموح اللامع البادي في عينيه، وحيوية ملأ بها البيت فور دخوله، كانت جلسة تعارف فقط؛ لحين تحديد موعد الخطبة، هكذا كانت الخطة، ولكني فوجئت بخطة بديلة، أعدها الشاب الطموح، المتعجل لتحقيق حلمه، تحدث بأنهم قدموا أوراقهم لأحد المستشفيات الكبرى بألمانيا، وتمت الموافقة، وليس أمامهم سوى شهر واحد فقط؛ لإنهاء كامل الترتيبات لعقد القران والزفاف، قدموا فكرة مكتملة الأركان؛ فلقد اتفق الطموح مع العزيمة والإصرار لديهما، وأعدا جدولهم الزمني، ورسما طريقاً مختصراً؛ للوصول إلى مبتغاهم، وهو أنه لن يتم إعداد شقة للزوجية؛ فسفرهم لن يجعلهم في حاجة إلى تأسيس بيت في الوقت الحالي، كل ما يأملون فيه، ويطلبونه منا هو موافقتنا على إتمام الاجراءات، والاستعداد؛ لتحقيق حلمهم بالسفر والعمل بالخارج.

جلستُ صامتة، والمفاجآت تتوالى خطوة وراءها خطوة؛ حتى وقفت ساره فجأة، وتوجهت إليّ لتقبلني، وتعيدني بعد شرود ذهني طويل، لم أرد بالنفي أو القبول، بل طلبت منه مهلة للتفكير في كل شيء؛ فعلى الأقل يجب أن يعلم والدها بكل ذلك، بعد انصرافه؛ توجهت إلى غرفتي صامتة، والجميع ينظر إليّ في خشية، وقلق على حالي، وتوجهت قسمت نحوي في محاولة فهم ما يدور بخاطري، وبمجرد نظرات إلى عيني تركتني أكمل طريقي إلى غرفتي، وبعد جلوسي بها ساعات طويلة؛ توجهت إلى الغرفة الكائن بها مكتب ناجي بعدما عاد؛ فأخبرته بموافقتي على كل شيء يخص سارة، وخرجت له بخطة كاملة لعقد القران والزفاف حتى موعد السفر، ولم أسقطه من هذه الحسابات الدقيقة، هكذا هو، وهكذا أنا، وأكملت بجزء خاص بي، سيتم بموافقة ناجي قبل موعد الزفاف بيومين، كم كانت صدمته كبيرة من طلبي هذا، ولكن بعد إصراراً مني، ومساومات مادية؛ وافق على الجزء الخاص به، ومنذ ذلك اليوم لم يجتمع ناجي معي في غرفة واحدة، قدمت إجازة طويلة من العمل؛ بحجة الترتيب للزفاف الذي سيأخذ كل وقتي في الأيام القادمة، أنهيت مع سارة جميع الترتيبات للزفاف، وكم كنت سعيدة؛ عندما شاهدت الحب المتبادل بينهما؛ فاطمئن قلبي ولم تكن لسارة مطالب كثيرة؛ فحررت لها شيكاً بمبلغ

مالي يساعدها حينما تتوجه إلى ألمانيا، وبعناية كبيرة تم اختيار ثوب للزفاف، وثوب لي أيضاً، ولانشغال نادية رحيم في بعض المؤتمرات الدولية، وبحياة مليئة بزخم وضجيج سياسي كبير؛ قد تاه مني بعض الوقت، اعتذرت عن التواجد؛ فدعوت لها بالتوفيق.

قبل موعد الزفاف بيومين فقط؛ خرجنا أنا وناجي وعدنا لم يعلم أي من كان أين ذهبنا، أو ما حدث أثناء تواجدنا خارج المنزل؟ فكما الجميع يخطط ويرسم لحياته، فخطتي الكاملة تسير كما تمنيت لها، وفي تكتم شديد تم هذا الجزء منها؛ وهو الانفصال، نعم الذي انتظرته سنوات كثيرة، حتى أكون مرة ثانية حرة، كنت أماً تحملت المسئولية التي لم أستهين بها، ولم أطلب الانفصال حين كان أطفالي في سن أصغر؛ أردت لهم حياة حتى وإن كانت مجرد غطاءاً لصورة، وأما الخبايا فلا يعلمها إلا الله.

انقضى اليومان في انشغالي مع سارة، في إنهاء الإجراءات والترتيبات الأخيرة، ولم ألتفت إلى تمثيلية ساذجة من ناجي بالحزن؛ فلقد حزنت أنا لسنوات، ولم يعلم عني شيء، وكسر في قلبي أماني وأحلام بضعفه، وعدم صد أي من كان بالتدخل في حياتنا، ومرة تلو الأخرى مزق اللمحات الأخيرة في تمسكي به، أو البقاء معه، نفذت هذا الجزء من خطتي؛ لأنه حقي في أن أعيش؛ حتى ولو أعوام قليلة بحرية، ليست الحرية التي تتخيلها أيها الرجل، ولكن الحرية بالنسبة للمرأة هي حرية القرار، حتى في سخافته أو بساطته؛ فالمرأة تسعدها البساطة في التعبير عن المشاعر، ودموعي التي نزفتها لأعوام لم تعد موجودة لأحزن مرة أخرى، حتى وأنا أقوم بتوديع ابنتي في تلك اللحظات الأخيرة من زفافها، كانت صدمتي لم تعد هناك دموع، ولعنت سنوات وسنوات، وسألت نفسي:

- ماذا بنيت بداخلي؟ جداراً وراء جدار، صد بحار دموعي، خرجت وراء السيارة سيرًا على قدمي، التي استقلتها العروس ابنتي، وهي تبتعد وتبتعد حتى اختفت، ولم ألتفت، نعم لم ألتفت مرة أخرى لأعود، بل استمريت في السير، وذهبت وابتعدت أكثر وأكثر؛ لأبدأ وأعيش ولو أيام قليلة، ناديه قاسم التي أعرفها، ربما أضحك، أو أعدو، أو أستطيع كسر الجدران، التي تمنع دموعي من الوصول الى شواطئ عيناي، لم أحمل معي شيء سوى غلاف قماشي احتفظت فيه ببعض اللمحات من حياتي، وبعض الصور لأطفالي حينما اشتاق لهم، كنت قد أخفيتهم في أحد جوانب سيارتي، أخذت هذه الأغلفة، ولم تكن لي رغبة في حمل أكثر من ذلك، ولم يعلم أحد وجهتي، وسرت بملابسي؛ فقد كان من ضمن المدعوين لحفل زفاف سارة رسول من نادية رحيم، أعطاني خلالها ورقة، وتأكد من أنني استطعت قرءاتها، وكنت منذ مدة قد أخبرتها بأنني أريد زيارتها في الكويت في أقرب وقت، على أن تكون زيارتي تلك سرية، لا يعلم عنها أحد؛ فوافقت حتى أنها لم تسألني لماذا السرية، بل رحبت كثيراً، وأعدت لتلك الزيارة، كل التفاصيل الدقيقة بها، كان بالورقة عنوان، ورقم هاتف، وفي أثناء الحفل قمت بالاتصال بذلك الرقم، وتأكدت من العنوان، ومن معرفتي للوصول إليه، استأجرت سيارة أجرة، وأخبرته بالعنوان المدون بالورقة، بعد مرور حوالي الساعة، كنت قد وصلت إلى العنوان المذكور، وفي أحد المنازل بمنطقة الجيزة؛ قابلت سيدة في الموعد، والمكان المحدد، وفي تلك الشقة بدلت ملابسي، وبعد نصف ساعة أخرى انطلقنا إلى مكان آخر بإحدى السيارات، وفي أثناء سيرها أخرجت يدي من نافذه السيارة، وكأني أُرحب بهواء الدقائق الأولى في حريتي، وفي حياة جديدة أولد فيها، وأنسى عمري والشيب الذي طل في رأسي، وأكون كاذبة لو قلت أنني وجدت يسراً في التعامل مع نفسي، ولكنني عنفتها على تساهلها في حقها، وعلى طول صبرها، ومالت نفسي لقراري، واستسلمت لتنفيذ ما بقي من خطتي، كانت مدة وجودي مع تلك السيدة مجرد ساعات، وبعدها كنت في الطائرة؛ متوجهة إلى الكويت، مرت ساعات السفر وأنا أحاول أن أقوم بفصل نادية الزوجة والأم التي عاشت لأولادها، ونست حتى وجودها عن نادية الإنسانة، وكانت عملية الفصل تلك دقيقة، تألمت نادية الأم كثيراً، ولكن لم تلتفت نادية الإنسانة؛ لذلك، الإنسانة تريد أن تذهب إلى بداية جديدة؛ تهدأ نفسها، وتبتعد بعيداً؛ لتنسى ما مرت به. صوت قائد الطائرة، يهنئنا بسلامة الوصول هو نقطة عندها، كانت لا بد من بداية أول سطر، بل لصفحة من أولها، بل حياة بأكملها؛ لأعيش فيها لنادية الإنسانة.

هبطت على سلم الطائرة، وأنا أشعر بأنني طفلة تخشى السقوط، تبدأ خطواتها الأولى في الحياة، وأقسم أنني كنت أتأرجح، وكأنني أتعلم خطواتي الأولى، وبينما كنت أقوم بإنهاء إجراءات الوصول؛ وجدت في انتظاري في مطار الكويت من ينوب عن نادية رحيم؛ نظراً لانشغالها في عدة اجتماعات؛ قدرت ذلك؛ فهذه حياتها التي عاشت من أجلها، واختياراً قامت به لنفسها.

وصلنا إلى المنزل، لم أكن أعلم أنه بهذه الفخامة، والضخامة، والرقي، استقبلتنا في بدايته حديقة، انطلقت فيها السيارة؛ حتى تصورت أننا لن نصل إلى نهايتها، أشجار وأزهار رائعة الشكل، وروائح تملأ المكان اشتهرت به الدول الخليجية كلها، وبدأنا قصرها بممر طويل، مملوء بغرف نمر بها يميناً ويساراً، وستائر بديعة المنظر تطل كل حين في جزء من الممر الطويل؛ لنبدأ من جديد، ضحكت موجهة حديثي لمرشدي في هذه الجولة:

- ألم نكن بحاجة إلى سيارة؟

ضحك الرجل لدعابتي، وأخيراً وصلنا إلى نهاية الممر، وإلى بهو رئيسي للقصر الضخم، على جانبه السلالم المؤدية للدور الثاني، بشكل دائري تحيط بكامل البهو، وأشكال من المقاعد المبالغ في تزيينها، ولكن ليس بشكل منفر، بل بشكل أنيق، أريكة كبيرة تتوسط تلك المقاعد، ولكن حجم الأريكة لفت انتباهي؛ لطولها الذي امتد معه بصري دون عودة، وفي مطلع الدرجات سبقني مرشدي للوصول إلي غرفتي في الدور العلوي شكرته ودخلت إلى الغرفة لأبدل ملابس السفر، وكنت عازمة وأنا أخلعها أن أخلع معها حياة أرهقت وتهدمت أركانها، وسقطت فوق بعضها، ولم يعد منها ما يقوى على تحمل المزيد.

وجدت نادية رحيم قد أعدت لي غرفة رائعة المنظر، بخزانة ملابس كبيرة، مليئة بقياسي من الملابس المختلفة، منها ما هو يناسب الخروج النهاري، أو السهرات، أو حتى المقابلات، دقائق ووجدت طرقات على أبواب الغرفة، كانت نادية رحيم، وكأنني عثرت على قطعة من نفسي مفقودة، وأخيراً رأيتها، ضحكتُ كثيراً واحتضنتها، وقبلتني هي مراراً وتكراراً، ولم نخرج من أبواب الغرفة، وجلسنا بكلمات وذكريات، وقصص باسمة كنا قد مررنا بها، وعشنا لحظات من العودة بالزمن إلى أيام منادتنا بالتوأم، وبعض الدعابات حينما نخدع الزملاء، بأن يقوم كل منا بدور الآخر، وضحكنا كثيراً؛ حينما تمر الخدعة ولا تنكشف، ووجدت نادية رحيم تشدني؛ لنقف أمام المرآة التي تتوسط الغرفة، متسائلة ألا زال نفس الشبه بيننا، ونظرت إلى المرآة؛ نفس الاختلاف البسيط حول الأنف، إلا أن علامات الزمن، بدت واضحة على ملامحي أكثر منها، عدنا لنجلس، وتفحصت كل منا الأخرى بعين الشوق، وشعرت أن بداخلها ما تريد البوح به، ولكن لا أعلم لماذا لم تتحدث، امتلأت عينيها بآلاف الأسئلة، تريد إجابة مني، ولأن كلًا منا تعرف الأخرى جيداً؛ لم تبوح نادية رحيم بشيء، حتى أنها لم تسألني سؤالاً واحداً؛ فهي تعرف جيداً أنني لو أردت التحدث لأخبرتها بكل شيء، جاء النوم كالزائر الغير مرغوب به، ولكنه حضر.

كان اليوم الثاني هو الجمعة من أيام الأسبوع، يكون عمل نادية رحيم من البيت، ومجرد اتصالات تنهي عملها، وبعض لقاءات بتقنية الفيديو تجريها، ومنذ اليوم الأول تعامل معنا جميع العاملين بالقصر بحذر شديد، الكل يعتقد أنني شقيقة توأم لها، ولم تخبرهم أي معلومة عني، وما بين الاتصال والآخر كنا نتحدث قليلاً عن طبيعة عملها ولم يمر الكثير من الوقت حتى استطعت الإلمام بالكثير مما تقوم به، قد أجادت تدريبي حتى لا نفترق، وقد قمت بالعديد من الأعمال نيابةً عنها من المنزل.

لم تفارقني نادية ولا حتى ساعات النوم؛ فأصبحت الغرفة مشتركة بيننا، وطلبت تجهيز سرير آخر لها بجواري، وكل ليلة ندخل في حوارات مختلفة في جميع مناحي الحياة، تارة في السياسة المولعة هي بها، وتارة أخرى عن الفن والحفلات التي تمنت الذهاب إليها ولم تستطع، أو البلدان التي حلمت بقضاء إجازة فيها، ولم يسمح وقتها بذلك، وتمر دقائق ما قبل النوم في سؤال مضحك يدور بيننا:

- نادية، هل نمتِ؟

إما أكون أنا، أو هي؛ فنضحك عندما يتكرر السؤال الحائر بيننا.

في ذلك اليوم استيقظت على أنينها بجواري، وجدتها ممسكة برأسها تتألم؛ قفزت إليها مفزوعة، أجلستها واستدعيت أحد العاملين؛ ليستدعي الطبيب، أو نذهب إلى مستشفى؛ فلم أكن أعرف ماذا أفعل؟ قام أحد العاملين بالاتصال بطبيب خاص بها، جاء الطبيب، وبعد توقيع الكشف، أخذني الطبيب إلى خارج الغرفة، وقال:

- ضغط الدم ارتفع فجأة، وهناك اشتباه في جلطة بالدم، ولابد من دخولها الرعاية المشددة فوراً تحت الملاحظة؛ حتى يتم التأكد من أن الأزمة مرت بسلام، ولم تترك أي آثر.

تم نقلها إلى المستشفى، ورفضت نادية أن يبدل ملابسها أي أحد غيري؛ فساعدتها ووقفت قليلاً، وفي أثناء ذلك دخلت إحدى الممرضات؛ لتسأل:

- من منكم ناديه رحيم ؟

فتبسمت وقلت أنا، هنا وبالرغم مما كانت نادية رحيم تشعر به من ألم، جلست ثم اعتدلت مرة أخرى، واستأذنت الممرضة في الخروج لدقائق، وبدأت حديثها بأنها في أزمة كبيرة، حدقت بوجهها في صمت، وأكملت أن تلك الأزمة أنا وحدي فقط أستطيع مساعدتها، هدأت من قلقها وأخبرتها أني سأفعل كل ما تطلبه، وأكملت بأن هناك اجتماع هام لا تستطيع التخلف عنه، ويجب أن أقوم أنا بالحضور على أنني هي؛ وهنا اتسعت عيناي، ولم أصدق ما أسمع، وتسمرت ولم أتحرك؛ حتى وضعت نادية رحيم يديها على وجهي، وطمأنتني، وقالت:

- كما كنا نفعل أيام المدرسة!

وأنا لا زلت في صدمتي مما أسمع، وأيضاً لا أستطيع الرفض، هدأت قليلاً وأنا أشعر بارهاق وضغط عصبي، وضعت فكرتها بداخلي، جلست وشرحت لي نقاط النقاش التي سيدور عنها اجتماع الغد، ونظراً لأهميته لها؛ لم يكن أمامي سوى الموافقة.

ودعت نادية إلى الرعاية والعلاج، وعدت إلى البيت، لم أستطع النوم طيلة تلك الليلة، قلق، خوف، وتخيلات كثيره تملكتني، لقد كنت بديلة لها بالعمل من البيت ولم يراني أحد، ماذا لو انكشف أمرنا؟

لاح الصباح قمت بتجهيز ما سوف أرتديه بعناية؛ فنادية صديقتي شيء، ونادية سيدة الأعمال المشهورة شيء خاص، هي ذات شخصية صارمة، وصعبة المراس إلى حد بعيد؛ حينما يقترب أحد من قراراتها التي تكون في الأغلب صائبة؛ لخبرات مرت بها، وسنوات عملها في هذا المجال جعلها إن لم تكن الأفضل، فهي من عشرة سيدات مصنفات على العالم الأقوى تأثيراً في عالم الاقتصاد والأعمال، كل هذا جعلني أختار كل شيء بعناية فائقة، ولقد حددت نادية لي طريقتي في الرد على بعض الأسئلة، ومع بعض أدوات التجميل الذى حدثت بة طفرة كبيرة، بل هائلة، استعديت ونظرت لنفسي بتعجب مجرد دقائق في المرآة، توجهت مغادرة إلى الاجتماع، وببعض التمسك والتبرير بأن التهاب أصاب أحبالي الصوتية؛ فلذلك هناك تغير بصوتي، مر الاجتماع، وبسلام انتهى، وكم كنت سعيدة عندما جلست عائدة مع سائق نادية في السيارة، سعادة تمنتها نادية رحيم لنفسها، وشردت قليلاً:

- هل الشبه بيننا كبير لهذه الدرجة؟

لم تتصل نادية حتى لتسألني، فما هذه الثقة الكبيرة في نجاحي؟ جاء الليل، ومعه بعض الاتصالات الخاصة بالعمل، ولم أعطي رداً قاطعاً في بعض الأمور، سألتها:

- ماذا أفعل؟

جاءني ردها صآدماً:

- من أنا لأخبر نادية رحيم ما تتخذه من قررات ؟ وكانت تشير بكلماتها إلي وتقصد الخبره التي أقرضتني إياها ، ضحكت لكلماتها وقلت لنفسي ولم لا ، ومرت الاتصالات الواحد يلي الآخر، وبعض مكالمات الفيديو التي كنت أستعد لها، وكانت إجاباتي من منطلق بعض الخبرة المكتسبة من عملي في البنوك، وقرب أفكارنا.

بعد عودة نادية وشفاءها؛ كانت تعد لأحد المؤتمرات الهامة، وكانت تشركني في كل خطوة، وتشرح لي أهميه القرارات الناتجة عنه، بدأت خطابات تهديد بالقتل ترد إليها أحياناً، نجدها على الهاتف، أو بترك رسائل بداخل طرود مرسلة، نفتحها؛ فنجد بها دماء أو دمى مقطوعاً رأسها، وأخرى على شكل رسائل إلكترونية مصورة لعملية قتل كاملة، وبعد مدة وصلت المطالب، وهي أن تقوم نادية برفض تمرير بعض القرارات الخاصة بإعطاء قروض ميسرة لشركات كبرى تعثرت أثناء فترة الركود الاقتصادي العالمي، ومهددة بالانهيار، والمستفيد هي شركات منافسة تعمل بنفس المجال، ويبدو أنها استأجرت خدمات لعصابات متخصصة في عمليات الاغتيال؛ وحينها اجتمعت نادية رحيم مع بعض مستشاريها، وكان وسطهم شاب بارع يكن لها كل الاحترام والتقدير، وهو عامر عبد الله، مصري مقيم وعائلته في الكويت منذ سنوات، ويعتبر نادية مثلاً يقتدى به، وينظر إليها على إنها امتداد لتاريخ كبير، ملأه المصريين بجميع دول العالم في جميع التخصصات المختلفة، وكان يردد دائماً أنه ينتظر لنادية تكريماً دولياً، يكاد يطمح إلى جائزه نوبل؛ فكانت تسخر هي من أحلامه تلك، وتردد:

- من أنا بجوار عظماء العلوم في كل أنحاء الدنيا؟

بعد هذا الاجتماع؛ تقرر البحث عن بديل لها لحضور المؤتمر، واتجهت الأنظار إليّ؛ فمن سواي يستطيع؟ ولم تتوقف التهديدات، بل ازدادت وتيرتها على جميع الأصعدة، وكان الجميع كالسجناء، حتى العاملين بالبيت؛ خشية على حياتهم، وكانت تأتي جميع أغراضنا خلسة من أبواب سحرية، موجودة بداخل السياج الشجري المحيط بالبيت، بطرق أشبه بألعاب السحر، وعند اقتراب الموعد؛ بدأت نادية رحيم إثناءي عن الحضور؛ خوفاً على حياتي، وجاهدة حاولت منعي، حتى اللقاءات التحضيرية رتب المستشارين لديها بدقة، ومن تلك الأبواب نخرج متخفيين بملابس، وأشخاص مختلفة، وكانت نادية تحاول منعي بكل طريقة من الخروج، وتقف كحائط عند تلك الأبواب، قائلة:

- ماذا سأفعل إن لم تعودي ؟

لكن سارت نادية طوال مسيرتها مناصرة لكلمة حق تقولها، حتى وإن كان الثمن حياتها فهو في نظرها ثمن زهيد، تدفعه غير مبالية بالعواقب، كيف لا أكون أنا سند لها؟ واستمراراً لتلك المسيرة، وكنت حين يأتي موعد لأي من تلك اللقاءات؛ في دقائق أتحول لنادية رحيم، وببعض اللمسات التجميلية التي اعتادت يدي على أماكنها، وبدقة وحزم أتحول إليها؛ فأخوض المحادثات، وأنهي جميع النقاشات غير مبالية بالتهديدات، حتى وإن نفذت.

****

الفصل السابع

أيام قليله تفصلنا عن الموعد النهائي؛ تحول البيت فيها إلى ثكنة عسكرية مصغرة، قوات الشرطة والأمن الوطني وغيرها، أشخاص كثر يسيرون هنا أو هناك في رقابة مشددة لجميع سكان البيت.

بدأ تدريبي حتى على إتقان خطها، وأصبحت نبرة صوتها تقليد أتقنته مع مرور الوقت، أتقنت نادية رحيم بكل تفاصيلها، حتى أنه حين أتحضر للتسلل إلى الخارج؛ يختلط الأمر على الجميع حتى مستشاريها بكل عشرة السنوات، لا يستطيعون التفريق بيننا، وأحياناً أشعر بالخوف من انقلاب السحر على الساحر، مشاعر أخفيها، ولا أتحدث بها حتى مع نفسي.

صباح يوم المؤتمر، ظهرت على نادية رحيم أعراض غريبة، لم نعرف سبب لها، آلام متفرقة تأتي وتذهب، ثم تورمات في بعض أجزاء جسدها ووجهها؛ تم استدعاء طبيبها الخاص، بدت على ملامحه علامات من القلق، اختار كلماته بعناية؛ حتى لا ينقل تلك المشاعر إلينا، طلب عمل العديد من الفحوصات المعملية الكثيرة، ومن شدة الآلام تم حقنها ببعض المسكنات الشديدة الأثر، وأحبت هي أن تتوارى عن أنظار الجميع بعض الوقت، وبدأت تأثير المهدئات والمسكنات يأتي بنتائجه؛ فذهبت في نوم عميق.

حان الوقت، وإمعاناً في التخفي تم تحضير سيدة تشبهنا كثيراً في الحجم والجسم، حتى تصفيفة شعرها، خرجت تلك السيدة في سيارة نادية من أبواب البيت الأمامية، أمامها سيارة يستقلها بعض أفراد الشرطة، وخلفها سيارة يستقلها بعض أفراد الأمن الوطني، وخرجت أنا في سيارة، تأتي كل ثلاثة أيام بجميع أغراض البيت، تدخل وتخرج من تلك الأبواب السحرية، متخفية أسفل المقاعد، ولم يشعر بي أو يراني أحد.

خرجت مجموعة السيارات التي بها السيدة، وفجأة اعترضتهم على بعد عدد من الشوارع سيارة دفع رباعي، وبدأ اطلاق نار كثيف نحو سيارة نادية، التي تستقلها شبيهتها؛ مما أدى إلى وفاه المرافقين لها، ولبراعة السائق استطاع الهرب من النيران الكثيفة المطلقة نحوهم، وتوجه بالسيارة بالقرب من موقع شرطي، لم يمنع المتعقبين من استكمال عمليتهم، وتبادلوا إطلاق النار مع قوات الشرطة المتواجدة في الموقع؛ حتى استطاعت تلك القوات قتل البعض منهم، وفرار من تبقى؛ حتى لا ينكشف أمرهم.

وصلت تلك الأنباء إلينا داخل قاعة المؤتمر، وكم كانت فرحتي حين جاءت لحظة التصويت؛ فرفعت يدي موافقة، وتم تمرير الأمر بسلام، وبالرغم من أن تلك القروض كان بها الكثير من الشروط والاملاءات الكثيرة، ولكن كما علمتني نادية استطعت تقليل وتخفيف الشروط، والبحث عن أقل خسارة، وأعظم ربح.

عدت إلى البيت بعد ساعات، كانت بالنسبة لي دهر بأكمله، وجدت نادية ما بين اليقظة والنوم، جلست بجوارها أمسح على رأسها؛ بدأت تستفيق ناظرة ومتسائلة بتلهف، تدور عيناها بين ثنايا وجهي، ولم أجعلها تنتظر كثيراً، ورويت لها كل الأحداث، حزنت كثيراً عندما علمت بوفاة اثنان من المعاونين في قضية اغتيالها، كانت تسمع بقية الأحداث بذهول، وصمت، وانتباه شديد حتى انتهيت، صمتت وبنظرات تائهة إلى لا شيء بدأت حديثها:

- لقد أفنينا عمرنا في العمل من أجل من يحيطون بنا، ولم نعش حياة فيها ولا حتى القليل من المرح، بل جمود وسخافات، أو تعرفين يا نادية؟ انتبهت أنا إليها، واستكملت:

- لابد لنا من عيش بعض الأوقات المماثلة.

وهنا جذبتني؛ لتهمس في أذني وقالت:

- لكن في أماكن لا يعرفنا فيها أحد.

وضحكت أنا للشكل، وللطريقة التي تحدثت بها، وضحكت بدورها؛ فنظرت إلى وجهها؛ أتفحص التورم الذي ظهر في الصباح، لم يكن له أي أثر، وفجأة قامت قافزة من فراشها، ووقفت لتأخذ نفس عميق، وعلى أرضية الغرفة أخذت تقفز وتقفز، وتدور وعيناي لم تفارقها، وكأن هم ثقيل قد أزيح من فوق صدورنا، وزالت الآلام، ولم تعد، ثم جذبتني لنجلس على حافة الفراش، وأخذت تنظر إلى وجهي، وكأنها تقف أمام المرآة تحدث نفسها، أكملت قائلة:

- لابد لنا من صفحة جديدة.

هنا أفلتّ يدي من قبضتها، وابتعدت إلى أقصى الغرفة، وصرخت فيها:

- ألم أبدأ حياة جديدة منذ مدة قليلة؟!

قفزت ورائي؛ لتواجهني ببقية حديثها:

- وما المانع من عيش لحظات سخيفة وتافهة، نضحك ونعدو ونلعب؟

كانت تملأ عينيها نظرات متوسلة، ورجاء طفولي غريب، وبحركات شفتيها، ويديها وإصرارها وتشبثها بما تطلب؛ استسلمت ولكن بشرط؛ عمل الفحوصات الطبية التى طلبها الطبيب؛ وقد وافقت، وعندما تسلمنا نتائج تلك الفحوصات؛ جاءت كلها سلبية

أصبحت أكثر حرصاً على تدوين كل المواقف التي نمر بها، بل كان الأغرب من ذلك؛ بدأت نادية رحيم تستكمل ما أسهو عنه، أو أتلكأ في تدوينه، ولم أجد نواقص في الأحداث، أو المواقف، أو حتى اختلاف في الخط، وكأننا شخص مقسوم على جسدين، ننفصل أثناء النوم فقط.

راعت نادية كل جوانب حياتي أكثر وأكثر، وحياتها أيضاً؛ وكأنها لا تريد لنفسها المرور بما كاد أن يحدث بعملية اغتيالها دون التعلم منه، والتصقت بي التصاق لم أعهده، مرددة:

- أنتِ كلتا ذراعي، ولست ذراعي اليمني فقط. كنت أضحك على هذا التشبيه، واستمرينا نكتب عندما تنتهي الأخرى في الكتابة، وحينما تقرأ أحدنا ما تدونه الأخرى؛ نشعر وكأننا نقرأ أفكار بعضنا، في تلك الأثناء واجهتني بأغرب فكرة وتصور لعلاقتنا علي الإطلاق؛ حينما أتت لي في عصر أحد الأيام بعد عودتها من بعض اللقاءات، جلست صامتة قليلاً؛ وحينها بادرت بسؤالها:

- أهناك شيء تخفينه عني، ماذا يشغلك؟

ردت:

- نعم، يشغلني احتياجي لقرض!

وهنا نظرت إليها:

- قرض؟!

أكملت هي:

- إنه قرض من نوع خاص!

سألتها بدهشة:

- وما حاجتنا لقرض، ونحن نملك أموالاً ليس لدينا من الوقت حتى لإنفاقها؟

أجابت:

- قرض مختلف يا نادية؛ فهو قرض حياة! استغربت المعنى، والوقت، والطريقة التي ألقت بها تلك الكلمات؛ فكانت بعيدة عن المكان والزمان، وتائهة وشاردة!

تحدثت بصوت خافت وخشية، لا أعرف سببها، أردت أن أفهم أكثر ما تقصده، توجهت بكلتا عينيها إلى وجهي؛ لتفسر لي ما هو بعيد من التوضيح عن فكرتها، فقالت:

- إذا زار الموت أياً منا؛ سيكتب على شاهد القبر اسم من عاشت منا.

ولأن الفكرة غريبة، ولم أكن أتفهم مقصدها؛ أخذت قليل من الوقت صامتة؛ أستوضح العبارات التي نطقتها نادية منذ قليل؛ حتى أستطيع الرد على الفكرة وطريقة التفكير، وبدأت ملامح الكلمات تتضح؛ فسارعت بقولي:

- أتقصدين أن من ستعيش منا تقرض توأمها التي رحلت حياة تحقق فيها ما تمنيناه، ونريد تحقيقه؟

فوقفت وقبضت يديها، وكأنها أمسكت لتوها مفتاح حياة، وتخشى أن تضيعه، وقالت:

- نعم، أي أن نصف عاش، ونصف رحل، ولن يخبو معه حلم نريد تحقيقه، ولأنني اكتفيت من كل شيء، بذخ الحياة، وثروات، وصيت ذاع أبعد مما تمنيت لنفسي.

وأكملت معها:

- ومن منا في حاجة إلى شخصيته

وهنا، وكأن عقد قد اكتمل أركانه بالموافقة على قرض الحياة، والتي ستقرضه كلاً منا لتوأمها، الذي رحل، وتنفذ حلمنا بتأسيس دار لرعاية الأطفال فاقدي الأهل؛ حتى يستطيعوا عيش طفولة حاول الجميع حرمانهم منها، بخطوات بطيئة سارت نحوي، وبعيون ثاقبة إلى أعماق نفسي التي فهمت، وبررت، ووافقت على هكذا قرض، وكأننا وحدنا علاقتنا في إخوة لا تنتهي، ولا حتى بالموت.

استمر التدوين، وحينما أمل أنا تكتب هي، ولا تشعر أحدنا بأي اختلاف في الأحداث، كيف والحدث واحد مقسوم علينا؟ وكأنه عهد كتبناه فيما بيننا لم يتم تسجيله؛ فلم تنظر أياً منا على ما يتم كتابته في صفحات سابقة ولو لمرة واحدة، وكأن هناك تصميماً؛ لمحو ونسيان حياة كاملة مرت، وذهبت دون وجودنا معاً.

لم نشغل بالنا كثيراً بتلك التوأمة الغريبة بيننا، لم أبالغ حين أقول أن ما تشعر به إحدانا كان سرعان ما تشكو به الأخرى، هل يمكن أن تمر أعوام عمرك وأنت تبحث عن توأم الروح، وهل لتلك الشخصية وجود؟ تساءلنا جميع الأسئلة، ولم نجد أجوبة، إلا إن الله أرسل كلاً منا للأخرى؛ لتخلصها من شوائب علقت بها من دروب الحياة، حتى الألم تقاسمناه بلا شكوى؛ فلقد ضلت إحدانا وها هي تصل إلى شاطئ الرسو، فلم يعد هناك بحار وأمواج، بل هدوء وسلام، نسيت كلًا منا حياة كاملة، وبدأنا حياة مقتسمة بيننا بكل الرضا والحب، وفي أحد ليالي الشتاء، دار بيننا حديث عن انقباض نشعر به، وكان الشعور يزداد مع دخول الليل، وكأن لحظات التوديع بدأت تلوح في الأفق، وفصل الالتصاق ولم تشعر كلانا بأنها تريد ترك الأخرى، شعور تسلل حتى ذهبنا إلى نوم حذر، محتضنة إحدانا الأخرى، وقبل بزوغ الفجر زاد الشعور، والانقباض كاد أن يقبض أنفاسنا، وفي التفاتة غير مقصودة منا استيقظنا، وبنظرة المستفيق من الموت، وعودته إلى الحياة أضأنا بعض أنوار الغرفة من حولنا، وحديث مملوء برائحة الموت، نبعده تارة، ويتسرب إلينا تارةً أخرى، لم نعلم من أين تلاقت أفكارنا، وسيطر على الغرفة شعور مملوء بالفقد، ومع ساعات الصباح الأولى؛ زاد إحساسنا بضألة ما نملك فما قيمته إذا ما تم الفقد.

وجاء الألم ليكون زائر، أثقل مشاعرنا ومع سطوع شمس اليوم الجديد؛ ازداد الألم، وكأنها عدوى سرت بأجسادنا، وحينما هدأت كل المشاعر، وابتعد الخوف قليلاً؛ تأكد أن الألم موجه سهامه لواحدة فقط منا، وفجأة، وصوت تألم، لم يعرف التمهل، وعدم التعجل؛ فسارعنا بالاتصال بأحد الأطباء، الذي نثق في خبراته، وبعد الفحص طلب عمل بعض الفحوصات؛ للتأكد من صحة ما يعرفه، ويتأكد من رؤيته، لم نكن ندري ما يدور حولنا؛ حينما طلب الطبيب، الاجتماع ببعض الأطباء، ومناقشة نتائج التحاليل، اجتمع رأي أكثر من طبيب، بعرض مجمل الأشعات والتحاليل على وجه السرعة على أحد الأطباء المتخصصين لهذه الحالة في القاهرة.

جاء التشخيص صادم وقابض ومحير؛ ورم كبدي في مراحله الأخيرة، وإذا ما أسرعنا؛ من الممكن إنقاذ حياتها، سمعنا كل الأحاديث، وبصراحة مؤكدة من الأطباء، ولم يتم إخفاء أي شيء عنها، ساعد الجميع في إنهاء إجراءات السفر إلى القاهرة، حاملين أملاً في الشفاء والنجاة.

تركنا كل شيء خلفنا؛ فما قيمة كل شيء إذا ما تم الفقد، ألم يكن هذا حوارنا الأخير؟ وسارعنا إلى الأطباء، ولحاجتنا إلى الكثير من المال؛ طلبنا من عامر تحويل كامل الأرصدة، وبيع جميع الممتلكات بدولة الكويت، وتم تحويلها إلى حساب باسم واحد فقط في أحد البنوك.

بدأت رحلة العلاج، وقمنا بشراء بيت أشبه بقصر الكويت، ولكن بحجم أصغر في ضواحي القاهرة، وتشابهت الأيام فتمر وكأنها ممرات الحياة المليئة بالضوء؛ فتنطفأ مصابيحها واحد بعد الثاني، وكأن عملية فصل دقيقة بيننا تتم؛ حتى تتحرر الأخرى وتذهب، واضعين نصب أعيننا قرض الحياة.

وفي أيام الألم ما كان يخففها سوى ذكريات الطفولة، نعم استعدنا طفولة لم نعشها، وحلمنا بأننا سنقوم بما تمنيناه لأنفسنا، لكل طفل تصل إليه أيدينا، فقد الأهل والرعاية، وكان هناك حلم آخر، ربما غير واقعي، ومن اسمه عشنا لحظات بالعودة لمرحله سن البراءة والشفافية؛ وكأننا وسط هؤلاء الأطفال نعيش أياماً سعيدة، يرعانا من حولنا، وتحضن أجسادنا الصغيرة بسماتهم، ودعابات تلقينا في بحر أحلام هائج؛ لتأتي أمواج الآلام تقذفنا خارجه، ووسط كل هذا لم تختلف ملامحنا، أو مشاعرنا كثيراً سوى عند تناول الأدوية.

يا لها من لحظات، عندما ترى نفسك في مرآة الحياة؛ تموت ببطء، شعور قاتل، وتمنينا من أن يحتضن الموت أرواحنا معاً، ومع كل يوم يزداد الألم الأكبر، وهو ألم الفراق، واقتربت الوحدة بعد الاتحاد، وتسرب اللون الأسود بعد اختفاء كل الألوان، وسيطر الحزن المقيت.

لم يخلو حديثنا من توصيات بحب الحياة، والاستمرار لكلانا؛ لأنه عندما تهل البسمة ستكون مقسومه بيننا، غابت واحدة فقط، وبكل الألم عدنا، نعم سنظل نكتب عنا، حتى وإن ماتت ولكن أي منا التي ماتت، فهل أستطيع أن أقف أمام المرآة؟ وأعترف من أنا؛ فالموت لم يأخذ سوى النصف فقط، وبقي نصف، دفن الآخر، ومع هذا لم يستطع هذا النصف أن يكتمل، ولا أن يذهب داخل القبر إلى نصفه الآخر، ولكنه أقرضه الحياة، ولكني لم أعترف لنفسي في أي من اللحظات بالفقد، بل

كنت أعدو إلى المرآة لأراها أمامي، وأضحك كما تضحك، ولم أحاول الذهاب إلى الشجن، واستدعاء الأحزان، حاولت جاهدة أن أعمل بكامل وصيتها، وأعيش بعض من طفولتها المهدرة في حضن أطفال فقدوا من يرعاهم، ولم أسمع سوى الأفكار والأحلام التي كانت تتمنى تنفيذها".

تحدث طارق إلي نفسه في صدمة غير متوقعه انتهت كلماتك سيدتي، وبقوة تلقيني داخل ظلمة تساؤلات، لا جواب لها، وبعد أن عشت كل لحظات حياتك لم أعرف من أنتِ، هل أنتِ نادية قاسم، أم نادية رحيم ؟ لم تتركي لي حتى إشارة أو تلميح؛ ليرسلني إلى الإجابة، بل أرسلتني إلى سجن الأسئلة الحائر بداخلها؟ فأنت بصدق وبقوة غريبة، وبالفعل سيدة الألغاز، حياتك مضيتها وأنهيتها بلغز أكبر، أين نادية قاسم؟ أو من كنت أعتبرها فاقدة الذاكرة، وإن كنت أيهما؛ فلقد اخترت لنفسك حياه منعزلة، فارغة بلا أسماء!

سأل نفسه هل يقوم بتسليم المذكرات لأنور؟ لقد كان ضابط شرطة، ويستطيع حل اللغز، وأجاب على نفسه:

- لكنها كانت تخفيها في مكان سري، يعني أنها لا تريد لأحد معرفه أسرارها، حيرة وراء حيرة، لم تكن صدفه إذاً سرقة طارق للمذكرات، هل كان طارق هو المختار من العناية الإلهية؛ ليقوم باستكمال رحلة الإخفاء التي بدأتها السيدتان؟

مجددا صدى كلمات في جوفه، إلى من يلجأ بما وقع تحت يديه من أدلة وبراهين؟ ولكن إلى أين ستؤدي هذه الأدلة والبراهين؟ إلى لا شيء، نظر طارق إلى ساعة معلقة على أحد جدران غرفته؛ وجد أن الساعة السابعة صباحاً، وبعينيه التي تكاد تعلن عن موعد الإغلاق، وللمرة الثانية سيذهب للعمل بدون نوم.

هذه المرة أصبح حريصا أكثر على إخفاء المذكرات؛ بعد علمه بكل محتوياتها؛ حتى لا تقع في اليد الخطأ، توجه إلى حمام بارد؛ ليستعيد معه بعض النشاط الذي فقده في جلسته الطويلة؛ لقراءة المذكرات، رفع وجهه لتتساقط قطرات المياه فوقه، محاولاً إخراج نفسه من الصدمة؛ فلقد عاش حياه مليئة بالنجاح وبالفشل في بعض الأحيان، وسار داخل ممرات ودهاليز محاولاً إشعال ضوء في أخرها، ولكنه وجد نفسه في هوة عميقة، يحتاج من يمد له يد العون ليخرج منها، وهو على هذه الحالة استكمل ارتداء ملابسه دون إفطار، أو حتى شرب قهوته الصباحية، وحتى دون ارتداء الجوارب، نظر إلى قدميه عند باب شقته، تبسم متخيلاً نفسه في العمل على تلك الحالة، عاد مسرعاً إلى كوب من القهوة السريعة التحضير، وقبل خروجه من البيت، وبنظرة سريعة إلى المرآة اطمأن أنه في كامل استعداده للمغادرة.

وصل قبل موعده بعشر دقائق متمنياً التواجد في الغرفة وحده لبعض دقائق، وفتح باب الغرفة بهدوء متخيلاً أنه يتسلل إليها، وإذا بصوت ندى يأتيه من خلفه، وتشير إلي آلة يثبت بها حضوره إلى العمل، وحدث نفسه:

- حتى عشر دقائق وحيداً لن أحصل عليها! وتبسم بسمة امتعاض، ولا زال الغضب يملؤه منها، ولم ينسى لها طريقة حصاره بالأسئلة في لقاءه بها في المرة الأولى.

حاول جاهداً الخروج مما أتم قراءته وعاش فيه، هذا اليوم الأول لتدريبه، وموجود مع ندى في غرفة واحدة مدة لا يعلمها، حاول جاهداً تهدئة نفسه، وإبعاد اللقاء الأول من ذاكرته؛ حتى يستطيع التعامل معها، بدأت ندى حديثها بكلمات واثقة عن علوم الحاسب والبرمجيات، وشرح مبسط لبرنامج تدريبه، ووسط حديثها تكلمت عن الكثير من المتقدمين للوظائف يتسرعوا بالتقدم دون الاستعداد للفوز بالوظيفة؛ فسوق العمل الحالي يتطلب المؤهل، مضاف إليه عدد غير قليل من الكورسات، مع بعض البرامج التدريبية في بعض المواقع، لم أغفل الواسطة من الحسبان، ولكنها لن تصل بالمتقدم إلى ما يتمني دون خبرة، استمرت في الحديث، وكان طارق مستمعًا جيداً، وفاتحاً عينيه، فهو لم ينم وفرصة كبيرة أن تستمر هي، ويكون هو مستمع لحوارها؛ حتى يستكمل برمجة الإفاقة بداخله، حاول لملمة الكلمات التي تساقطت أمامه لشرح ندى المفصل عن حتمية الضغط الكامل على المتقدمين للوظائف، خاصةً المتميزة منها؛ حتى تستخرج منهم من هو الأفضل، وهنا سألها:

- وهل من الممكن أن يؤدي المزيد من الضغط إلى الانفجار، وإظهار شخصية مختلفة؟

أجابته:

- أحياناً يحدث ذلك، ويفقد المتقدم فرصة متاحة له، ولكنني رشحتك دون الجميع لتلك الوظيفة! هنا، وكأن صفعة قوية انهالت على وجهه؛ أعادته إلى مكانه، وحتى أن برمجة الإفاقة لديه حدث بها بعض السرعة، وببعض الكلمات من الثناء على مهاراته، وقدراته، واستمراره بإبهار لجنة الاختبار بمعلومات وبيانات دقيقة أخرجتها؛ حينما تم الضغط والإلحاح عليّه؛ فظهرت لديه دون غيره.

استمر طارق في الاستماع إليها، حتى توقفت وطلبت منه البدء في برنامج التدريب، اختلس طارق بعض النظرات إليها، وبعد أن تغيرت ملامح الشخصية الهجومية، والتي اتضح أنها عكس ما رسم لها في مخيلته، وبعد كل فقرة من فقرات البرنامج، مصاحبة بكلمات ثناء منها على تقدمه على المخطط اليومي لتدريبه؛ فلم يكن طارق من النوع الخامل، الجالس،

منتظراً فقط، بل كان يعمل على نفسه، يثقل من خبراته ليكون جاهزاً لسوق العمل فور ظهور فرصته، حتى أن برامج الكتابة بلغتين غير العربية قد قام بالتدريب عليها، وتفاجأت ندى حينما كانت تبدأ بالمخطط اليومي للتدريب؛ لتجده في نهاية اليوم يلم بكل الأفكار، مع الوصول للمعلومة بطريقة أسهل، وباختصار في الوقت والجهد، وفي دقائق الفصل ما بين التدريب، وما يدور بينهم من كلمات، تكونت لديه ملامح شخصية هادئة، راقية، بسيطة لندى وحتى في ملابسها وتبرجها، ولم تجد أبداً مشقة في تدريبه؛ فلقد مر بكل هذا في برامج سابقة كان قد خضع لها أثناء فترة بحثه عن عمل، ووجد في بعض جوانب شخصيتها تشابه بينه وبينها.

****

الفصل الثامن

نداء متكرر باسمه أسقطه من صعوده في تلك الافكار ليأتي به في عالمه مرة أخرى، وكان الرد نعم على ندى التي أخبرته بانتهاء مواعيد العمل، وأنه قد حان موعد الانصراف؛ فاستأذنت وانصرفت وكنت أنا التالي من خلفها.

توجه إلى المستشفى؛ للاطمئنان على نادية، لم يستطع تحديد الاسم، مجرد نادية فقط، وفي البهو قابل ضياء، ولأول مره يجد أنور معه، كان يقف في شرود وحزن؛ فانقبض قلبه، وتسارعت دقاته؛ لا يعلم لماذا، أيكون قد علم بأمر المذكرات؟ لم يترك نفسه كثيراً لهذا الشك؛ فتوجه إليه محاولاً إظهار شعور بأنه لا يبالي بوجود أنور، وبعد سؤالهم عن تأخره في الحضور، وقد علموا بأنه بدأ في عمل جديد منذ يومين؛ فرح ضياء كثيراً قائلاً:

- أخيراً وجدت عملًا!

علمت بعد ذلك بأنهم كانت لديهم جلسة، وأحاديث طويلة مع طبيبها؛ لمعرفة أخر المستجدات في حالتها، وقد كان السؤال الأهم من أسئلة الطبيب:

- هل ظهر أحد من أسرتها؟

سمع طارق هذه الكلمات كالرنين الصارخ في أذنه، ثم صمت، وتوجه إلى غرفتها، ولم يكن معهم أنور، وكانت معتدلة قليلاً في جلستها، ولا زالت الكثير من لفائف الضمادات حول رأسها، وبدأت جروح وجهها تأخذ طريقها إلى الشفاء، وكان طارق يحاول باحثاً في دهاليز عينيها، التي لا تراه محاولاً الإمساك بأي خيط؛ ليعرف به من تكون هذه السيدة؟ حاول التماسك حتى لا يرتاب ضياء في أمره، وحينها حاول ضياء هو الآخر التماسك، ولم يعلم طارق لماذا تظهر عليه هذا العلامات؟ وكان يعلو وجهها حيرة وقلق وهنا صوتها الخافت بدأ يقول:

- هل أنت هنا يا عامر؟

شرد طارق قليلاً:

- أي عامر فيهم، أيكون ابن أخ نادية قاسم، أم مستشار نادية رحيم؟

عدنا إلى نقطه البداية، معك سيدتي أول مرة لا تعرفيني، والآن تنادي بأسماء لا نعرفها، وهنا بدأ ضياء بالحديث:

- نحن جيران، نقطن بحي واحد، وقد جئنا للاطمئنان عليكِ.

كان سؤالها أسرع من استكمال ضياء لكلماته:

- ولماذا أنتم دون غيركم؟

فجاء دور طارق في الرد بأن منزله مواجه لمنزلها، وضياء هو صاحب المطعم الشهير، وجميع قاطني الحي بأكمله لا يطلب طعامه إلا من عنده، وحتى أنت تقومين بذلك.

هنا هدأت قليلاً؛ فجاءت كلمات ضياء:

- إن كان وجودنا فيه ازعاج؛ يمكننا الانصراف على الفور.

ببسمة أذهبت شعور بالإحراج لاح على الجو العام بالغرفة قائلة:

- على العكس، أنتم مرحب بكم، وأنا سعيدة بوجودكم، أنا منذ الأمس أصحو وأنام ما بين دقيقة وغيرها، مشتاقة للحديث مع أي شخص قد يعرفني؛ فلقد تحدثت مع إحدى الممرضات التي تأتي على مدار اليوم، والمتابعة

لحالتي؛ فأخبرتني بأنني فاقده للذاكرة، ومنذ ذلك الحين وأنا أمد يدي لأي يد تحاول مساعدتي في استعادة ذاكرتي ولو تدريجياً.

جلس طارق وضياء على مقعدين حول سريرها، وكأنهم تأهبوا للمهمة، مستعدين لها؛ فبدأ طارق كلماته موجهاً إليها الحديث:

- الطبيب قد أخبرني أنك لا بد أن تمدي يدك أنت سيدتي بالعون، ولو ببعض المعلومات البسيطة التي تعرفينها؛ فخيط وراء خيط من الممكن أن يفتح لنا الأبواب المغلقة.

شردت قليلاً؛ محاولة البحث في داخلها عن شيء تبدأ به، وبعد صمت وهم في حاله من الانصات كتائهين تحدثت:

- كل ما أتذكره بهو كبير لأحد المباني التي تشبه القصور أو البيوت القديمة، وروائح جميلة تسري فيه.

وعند هذه الكلمات سمعوا طرقات على الباب، ودخلت الممرضة؛ لتعلن أن وقت الزيارة قد انتهى، ولا بد للسيدة من الراحة؛ وقفا، وبعد هذه البداية، التي لا تعتبر خيط لشيء غادرا؛ امتثالاً لأوامر الممرضة المسؤولة عن حالتها، وسيراً على الأقدام تهرب طارق من العودة مع ضياء؛ لا يعرف لماذا؟ فبعض الأحيان يشعر ببعض الارتياب لتصرفات ضياء، في هذه الوقت ركب ضياء سيارته، ورنين هاتفه، وكانت المتحدثة زوجته لتسأله عن مكان تواجده، وهنا نطق وكأنه يريد أن يعترف بشيء أخفاه طويلاً، قائلاً:

- لن أخفي عليكِ هذه المرة!

فقالت زوجته:

- ماذا حدث يا ضياء؟

قال:

- سأقص عليكِ كل ما جرى، فلا تقاطعيني ولا تؤنبيني أرجوك، فقط استمعي، منذ مدة حدثت حادثة كبيرة لسيدة تقطن بجوار المطعم، كنت أنا الشاهد الوحيد لتلك السيارة التي صدمت المرأة.

صمت من زوجته منتظرة بقية القصة:

- كان سائق السيارة هو ابننا أحمد!

وهنا وكأن جبال سقطت من السماء، وبصرخة مكتومة، وبألم فاق الوصف سألت زوجته غير مصدقة:

- أحمد ابننا!

فأكمل ضياء:

- نعم، أخفيت ذلك عن الجميع، لم استطع البوح بشيء؛ فالمرأة يوم بعد يوم تزداد حالتها سوءاً، بعد أن فقدت ذاكرتها فقدت بصرها.

استمعت إلى تلك الكلمات، وحينها بدأت بالبكاء:

- وما حالها الآن يا ضياء؟

كان سؤال زوجته عن المرأة؛ فقال:

- أنا أحاول تقديم يد العون إليها باستعادة ذاكرتها، ولإحساسي بكل الذنب المميت والقاتل، تكفلت بكل ما طالبته إدارة المستشفى من تكاليف، ولا زلت أستمر محاولاً غسل بعض خطايا ابننا؛ فالحادثة مؤلمة ومفجعة لجميع أطرافها، ولذلك قمت بشراء سيارة بديلة؛ محاولاً طي الصفحة بكل تفاصيلها، وأقوم يوماً أو يومان في الأسبوع بزيارة تلك السيدة مع أحد سكان المكان، وهو شاب مهذب، حتى أنه لم يسأل لماذا أقوم بذلك؟ مع إحساسي بأن لديه بعض الشكوك حولي، ولكني أحاول إخفاء ذلك.

سمعت الزوجة كل ذلك منصتة، مستسلمة، وانتهت المحادثة على تلك المفاجأة المؤلمة والمفزعة، كان طارق قد توجه لبيته مباشرةً؛ فهو لم يذق طعم النوم منذ الأمس، ولا يجد أمامه سوي معانقته السريعة لفراشه؛ وإلا سقط على وجهه نائم على أحد أرصفة الطريق، وصل إلى شقته، وبتغيير ملابسه أنهى يومه بنوم، حتى الطعام لم يجد شهية مقبولة لديه، ولم يسأل نفسه كثيراً عما يريد؛ فالنوم كان احتياجه الأول والأهم والأخير، ذهب إليه مسرعاً، وغاب فيه غياباً طويلاً.

فتح طارق عينيه ليجد أن أنوار البيت بكامله مضاءة؛ فلقد نسي إطفاءها قبل نومه، وأمسك بهاتفه ليجد عدد من المكالمات التي لا حصر لها، بدأها بعمته، ثم شقيقته في صورة رسائل، وليست مكالمات، مجرد كلمات سريعة أنهى بها جميع الأحاديث، أحضر طارق بعد الأوراق، وبدأ يدون كل المعلومات التي عرفها عن السيدتين من المذكرات، يوسف وسارة أبناء نادية قاسم، لا بد لهم من وجود، إن كانت هي نادية قاسم، وبعد شرود قصير؛ وجد أنه لا بد لأسرتها من معرفة حالها التي وصلت إليها؛ ليستطيعوا مد يد العون لإخراجها مما هي فيه، ولكن أين هي أسرتها، أين يعيش يوسف ابنها؟ وابنتها ساره قد سافرت للخارج، وهل عادت؟ وفجأة وكأنها لافتة كبيرة، ظهر اسم سارة، وتخصص المخ والأعصاب؛ فالأطباء في هذا التخصص ليس بالعدد الهائل، ومن الممكن البدأ من هنا، حينما توصل طارق إلى ذلك بدأ بالهدوء والتفكير في نفسه ولو قليلاً، شعور بالجوع داهمه فتوجه إلى الثلاجة، وهو سائر منشغل بالتفكير في كيفية الحصول على هواتف الأطباء في هذا التخصص، ويحملون اسم سارة، أكل الطعام حتى دون أن يقوم بتسخينه، ولم يشعر بالطعم في فمه، ولكنه اضطر إلى ذلك لسد الشعور بالجوع، خطر على ذهنه الموظف الذي لجأ إليه في السنترال؛ للحصول على الأرقام، من الممكن اللجوء إليه مرة أخرى، ولكن هناك مشكلة؛ فوقت عمله صباحاً، ووقت عمل طارق صباحاً، ما العمل؟

مر مساء هذا اليوم بطيئاً، كسير سلحفاة على الرمال، وذهب إلى نومه، مستسلماً لغدٍ يأتي بالحل معه.

في الصباح وبعد ذهابه الي مقر عمله بدأ هو وندي في المقرر اليومي لتدريبه ووجه اليها سؤالا هل أستطيع التغيب لساعة أو ساعتين والعودة سريعاً؟

فسألته:

- أتريد الحصول على إذن في الإسبوع الأول لاستلامك العمل؟

وبهزة وإيماءة من رأسه مبتسماً موافقًا على سؤالها؛ فوجهت سؤالها التالي:

- ما سبب الإذن؟

وقبل أن يتلعثم،:

- أقوم بالبحث عن طبيبة في المخ والأعصاب لعلاج أحد الحالات المركبة، والتي اشتهرت تلك الطبيبة في شفائها.

شعر طارق بمنطقية إجابته على ندى فالسيدة بالمستشفى فاقدة للذاكرة، ولديها مشاكل صحية بمراكز في المخ، وحاجتها لطبيبة من هذا النوع مناسباً جداً.

وأجابته ندى أنها ستقدم الإذن نيابةً عنه على أن يعود سريعاً؛ ليعوض الوقت بإنجاز ما تبقى من التدريب اليومي، وعند دقات الساعة العاشرة غادر مقر الشركة، متوجهاً إلى السنترال، وقابل الموظف، وأعطاه الاسم الذي يريد الاستعلام عنه، وأكمل أنه لا يعلم هل هي داخل البلاد أم خارجها؟

غاب الموظف مدة طالت من الوقت، وفي اتصال هاتفي منه طلب مني المغادرة على وعد منه بأنه عندما يصل إلى نتيجة ما سيقوم بالاتصال به.

عاد طارق إلى عمله، وحينما رأته ندى، سألته:

- هل عثرت على العنوان؟

أجابها بالنفي؛ فأسرعت لتقول:

- اعطني الاسم، وسوف أساعدك في الحصول على العنوان ورقم الهاتف.

لم يتردد في ذلك، دونت ندى المعلومات في ورقة، ووضعتها بداخل حقيبتها، استكمل طارق وندى المقرر من البرنامج التدريبي، ومع عبارات الثناء على أدائه، لم تعد ندى تظهر الذهول والدهشة حينما تبدأ بجزء وينهيه طارق بدقائق؛ فقد تأكدت بأنه يرقى للمستوى المتميز في تخصصه، وقبل الموعد بحوالي ساعة انتهى المقرر للتدريب اليومي، ودار بينهما حديث لم يتم التطرق خلاله لأي أمور شخصية، وجاء وقت الانصراف، وغادر طارق متوجهاً إلى المستشفى، وأثناء سيره في الممرات للوصول إلى الغرفة، سأل نفسه:

- كيف لم يتبادر إلى ذهني أن اسأل عن الدكتورة سارة بالمستشفى؛ فهو المكان الأنسب للسؤال عنها.

وقبل انتهاء الممر والوصول إلى غرفة السيدة نادية، ذهب إلى غرفة الحكيمات، طرق الباب حتى تم السماح له بالدخول، وطرح السؤال بكل بساطة:

- هناك طبيبة في تخصص المخ والأعصاب، يقال أنها تتميز في طرق جديدة في علاج بعض الحالات، اسمها سارة

وصمت قليلاً منتظراً؛ وكأنه تائه عن بقية الاسم؛ فقامت إحدى الممرضات بالرد على سؤاله:

- اسمها سارة ناجي عبد الحميد، طبيبة أخذت اكثر علومها من ألمانيا، ولديها طرق جديدة في العلاج، للحالات المتقدمة في تخصص المخ والأعصاب.

تراجع طارق خطوات للخلف مندهشاً؛ مما توصل إليه بكل يسر، وسأل الحكيمة:

- أين عنوانها أو العياده التي تقوم بالكشف فيها على المرضى، أو حتى المستشفى التي تعمل بها؟

أجابت:

- في محيط منطقة مدينة نصر، ولكني ليس لدي تفاصيل بالعنوان.

وهنا هنأ طارق نفسه بالوصول إلى هذه الكمية الغنية من المعلومات دون ترتيب، أو تنسيق، وحينما كان متوجهاً إلى غرفة نادية، سأل نفسه:

- أتكون سارة هي ابنه نادية قاسم؟

فابتسم ابتسامة المنتصر؛ حينما تذكر اسم زوج نادية في المذكرات، لقد كان اسمه ناجي، وصل إلى غرفة نادية، وجد الطبيب كان يستعد للخروج من غرفتها، ألقى التحية عليها، وخرج مصاحباً للطبيب؛ ليسأله عن حالها؛ فأجابه أن التحسن ليس بما نتمنى لها، ولكنها طبيعة الحالة التي وصلت إليها.

شكر الطبيب مكتفياً بما قاله، والذي لم يكن بالنسبة له مطمئناً، وعاد إلى غرفتها، ساعدها قليلاً في الاعتدال في جلستها، وساندها حتى تتمتع بعض الخطوات على قدميها، وكم كانت سعيدة؛ حينما لامست الأرض من جديد، ورفضت ارتداء ما يفصل قدميها عن الشعور ببرودة الأرض، وببعض المساعدة أكلت القليل، كان طارق سعيداً بما يقوم به، فرحاً بما يقدمه لها، وكانت سعادته أكبر بالوصول للمعلومات التي حصل عليها، انتهى وقت الزيارة، وعاد إلى بيته، ولم ينتظر؛ قام بالاتصال بموظف السنترال، وأعطاه الاسم، وطلب منه البحث عن العنوان، ورقم الهاتف مع رجاء بسرعة الرد عليه.

شعور بالكثير من التوتر والقلق انتابه، لا يعرف لماذا جلس يتساءل، ينتظر، هل سيأتي الرد اليوم؟ شعر بمرور ثقيل للوقت، وهو على تلك الحالة رن هاتفه؛ فأسرع بالرد، ولكنها عمته وعندها شعر بخيبة أمل، جاء صوتها فقالت له:

- من كنت تنتظر غيري لتحدثك على الهاتف؟ ضحك من سؤالها هذا، وبالطريقة التي ألقته بها ضحكت هي الأخرى، أنهت حديثها معه بتذكيره بالسؤال عنها، ومداومة ذلك، مرت نصف ساعة أخرى وكأنها شهور وسنوات، وكان الاتصال التالي من موظف السنترال، أمسك طارق هاتفه، وفي مكالمة قصيرة طلب منه ورقة وقلم كان هو قد اعدهم بالفعل؛ دون العنوان المنزل والعيادة، وأرقام هواتف كثيرة، أكثر من خمس هواتف لبعض المستشفيات التي تعمل بها، وتقوم بالإشراف على بعض المرضى فيها، ولكنه لم يأخذ المعلومات دون سؤاله:

- هل هناك تحت هذا التخصص اسم سارة متكرر؟

رد الموظف:

- الاسم ليس منتشراً هناك، تحت هذا الاسم خمس أطباء فقط، وأن سارة ناجي هي الوحيدة التي تقع عيادتها في منطقه مدينه نصر.

دون طارق جميع الهواتف والعناوين، وأغلق الهاتف بعد حصوله على هذه الثروة من المعلومات الغنية بالعناوين وأرقام الهواتف، بدأ بإسم سارة ناجي عبد الحميد، أخذ يقوم بالاتصال بجميع الأرقام المدونة بجوار اسمها، لم يكن أي من تلك الهواتف متاحاً، وقام بتجربة رقم آخر، وكان نفس الرد، أن الهاتف غير متاح؛ فقام بتجربة رقم ثالث، وكان الرد مماثلاً، وبرسالة مسجله لأي استفسار:

- اترك سؤالك وسنقوم بالرد عليك لاحقاً.

لم يجد طارق لديه أدنى شك في أن الهاتف لن يكون الأداة أو الوسيلة التي ستجيب عن كل تساؤلاته، لا بد من التحرك إلى أحد هذه العناوين، نظر إلى ساعته؛ وجد أن الساعة مقتربة من الثامنة، وهو الموعد المناسب للتحرك بل هو الانسب ولكنه سأل نفسه من اين يبدأ فتوجه إلى عيادتها بمدينة نصر؛ هو في أحد الشوارع الكبيرة في منطقة تشتهر بإنتشار عيادات الأطباء، وصل في حوالي التاسعة، وكانت البنايات تتشابه، ولم يستطع تحديد المدخل الصحيح للعنوان الذي

يحمله؛ فلجأ لسؤال حارس عقار، وقف بجواره فأشار إلى عقار يشبه بيت ذو دور واحد، تحيطه الأسوار الحديدية القصيرة، ومحاط بسياج شجري صناعي متشابه الشكل، يتوسط كل هذا باب حديد قصير، نفذ طارق من الباب، ثم المدخل الذي يتوسطه باب خشبي كبير، كل هذا كان بجوار قطعه أرض ذات مساحة شاسعة، تبدأ بها أعمال بناء كبيرة، نظر إليها طارق أثناء دخوله، يبدو أنها إنشاءات هائلة الحجم، أخبره الحارس:

- تلك هي العيادة، وهذه الارض والبنايات العاملة عليها هي لمستشفى خاصة بالدكتورة سارة، حينما وصل طارق؛ توجه إلى موظفة الاستقبال، وتساءل متي يستطيع رؤية الدكتورة سارة ؟ أجابته:

- لقد اكتمل اليوم عدد المرضى، وإن كان لديك الرغبة في عرض حالتك سيكون ذلك في الغد عند السابعة؛ حين يبدأ المرضى بالحضور، وانتظار أدوارهم في عرضهم، والكشف عليهم في تمام الساعة الثامنة إلا ربع.

تسمر طارق في مكانه، لا يجد الكلمات؛ فبادرته الموظفة، وكأن حاله وهو واقف أمامها بلا حراك أو صوت قد جعلها تبحث له عن مخرج ما، وأكملت:

- تستطيع انتظارها؛ فأمامها حالة أخيرة وتخرج، خلال عشر دقائق على الأكثر؛ للذهاب لإحدى المستشفيات القريبة.

فأومئ برأسه بالموافقة على كلماتها الأخيرة، وبحث لنفسه عن مقعد وسط جموع المنتظرين، ومرت الدقائق وهو يقف تارة، ثم يعاود الجلوس مرة أخرى؛ حتى فتح باب غرفة الكشف؛ ليخرج مريض مقعد على أحد المقاعد الطبية، ومعه مرافقيه، وبدا كل من حول طارق بالوقوف والتأهب لانتظار خروج الدكتورة سارة؛ فحال بينهم وبينها عدداً ليس بالقليل، وخرجت هي منكبة على بعض أوراق بين يديها؛ تتفحصها وتدقق فيها من وراء عدسات النظارات التي تخفي جزء كبير من ملامح وجهها، والجموع تمنعه من الوصول إليها؛ فقفز على أطراف أصابعه؛ يريد فقط رؤية ملامح وجهها؛ لعله يجد من مجرد النظر إليها إجابة عن أسئلته الحائرة، والتائهة، هل كانت تسمع كل ما يدور في عقله؛ فبحركة سريعة، وخفيفة خلعت النظارات من فوق عينيها، ورفعت وجهها لترد على أحد الأسئلة، وهنا سقط طارق من فوق أطراف أصابعه مستسلماً، ومسلمًا لملامح تتكرر أمامه، متسائلاً:

- أهذه النسخة الثالثة من نادية؟

نفس الملامح التي لا تستطيع أن تخطئها، الشعر المنسدل كخيوط الحرير، العيون الحزينة المتألمة، المنتصرة، القوية في نفس الوقت، نفس التناقضات، لم يشعر بالوقت وهو يمر وهو متسمراً على حاله، حتى وجد نفسه أمامها، وجهاً إلى وجه، وجهت حديثها إليه:

- ممَ تشكو؟

لم يجد الكلمات، ولا الأسئلة، ولم يشعر بالثواني التي مرت، وهو كالعاجز نطق بكلمتين فقط، مختصراً كل الكلمات:

- مريضتي اسمها نادية قاسم.

هنا سقطت الأوراق من يدها، واهتز الجبل الذي كان صامداً منذ قليل، مرتبكة وتحاول إخفاء ما بداخلها من بركان أسئلة تفجر؛ فمدت يدها؛ لتجذب طارق متوجهة به إلى غرفة الكشف التي اغلقت منذ قليل معلنة انتهاء العمل بها، وبحركة عصبية بدأت توجه إليه الأسئلة:

- أين هي، أين أمي؟

وهنا تساءل طارق في نفسه:

- هل لديها كل التأكيد بأن تلك السيدة هي من تسأل عنها ؟

أجابها أنها بالمستشفى، وبادرت هي:

- منذ متى، وما بها؟

كانت تنتظر منه الإجابة، وكانت تنظر إلى فمه متوسلة إليه بالنطق، والإجابة لتهدئة براكين أسئلة قفزت إلى عقلها، وجاء رده:

- إنها ترقد في إحدى المستشفيات الخاصة، بعد تعرضها لحادث سيارة.

لم يتحدث طارق كثيراً عن حال السيدة نادية، وترك الباقي لتكتشفه هي؛ فهي الطبيبة، صمتت لبعض الوقت، وكأنها تلملم أفكاراً مبعثرة، ولم يكن منها إلا أن جذبته بقوة إلى خارج غرفة الكشف، بل إلى خارج البناء بأكمله، وفي عصبية وقلق

صرخت على حارس العقار؛ ليحضر لها سيارتها، وبعد قليل كان الصمت عنوان رحلتهم إلى المستشفى التي ترقد فيها نادية، صعدت درجات المستشفى، لم يدري أكانت تسير، أم تعدو، أم تطير؟ ثم تنظر للخلف؛ لتنتظره يصل إليها ويرشدها على بقية الطريق وعلى الغرفة، وحينما وصلوا إلى باب غرفتها علموا بأن الزيارة لم تكن متاحة في ذلك الوقت، سألت سارة عن الطبيب المعالج، وجاءها الرد بأنه ليس متواجد الآن؛ فقامت بالتعريف عن نفسها لإحدى الطبيبات المناوبة، وأنها جاءت لتلقي نظرة على تلك السيدة المصابة؛ فوافقت الطبيبة على الفور، وقفت ساره قليلاً، قبل أن تفتح باب الغرفة ممسكة بمقبض الباب، تتساءل وتنظر إلى طارق؛ أتكون نائمة الآن؟

لم تنتظر وأجابت:

- حتى وإن كانت نائمة، لن أقوم بإزعاجها، سأقبلها فقط، لا لا، لن أقبلها؛ حتى لا تشعر بوجودي، بل سأشاهدها من بعيد.

ولوت مقبض باب الغرفة؛ لتنفتح، وجدوا أن السيدة بين محاوله للنوم والاستيقاظ، شعرت بهما فور دخولهم الغرفة وبحركة سريعة سحبت سارة التقرير الذي يتم التسجيل فيه كل صغيرة وكبيرة عن حالتها، والعلاج، والجرعات، قرأته بعين الطبيب سريعاً، وضعت يدها فوق فمها؛ لتكتم صوت بكائها، حينما اعتدلت نادية ورأت الجروح التي في طريقها إلى الشفاء، والتي قطعت معالم كثيرة في وجهها؛ فأخفتها وغيرت منها، وحتى لا تسمعها نادية، استطاعت بعين الطبيب أن تكتشف طبيعة الحالة، وأخر التطورات، وبحزن كسا جميع ملامحها، وبنظرات العطف والحب وقفت دون حراك حينما شعرت نادية بوجودهما؛ فبادر طارق بإلقاء التحية حتى تسمع صوته، وأخبرها بأنه عاد ليطمئن عليها، ويسأل إن كان هناك ما يستطيع أن يقدمه لها من احتياجات، ولم يجد من الكلمات ما يقوله أكثر من ذلك؛ فلقد انعقد لسانه عن النطق، وكانت نادية منتظرة ليستكمل حديثه عن سبب عودته الحقيقية، كان هذا سؤال واضح ينطق به تعابير وجهها المتسائل:

- هل معك أحد آخر؟ فأنا تصل إلى أنفاسي، رائحة عطر نسائي من النوع الذي أفضله. فتحدثت سارة، وقالت:

- أنا هنا يا سيدتي، طبيبه مناوبة جئت للاطمئنان على حالتك، وسؤالك بعض الأسئلة التي قد تساعدنا في الوصول بك إلى استعادة ذاكرتك.

وبهدوء جففت دموع تتساقط فوق وجهها، لم تستطع سجنها داخل عينيها، وعندما نقل طارق عيناه إلى وجه نادية وسارة؛ لعله يجد من مجرد سماع صوت سارة إجابة في وجهها، ولكن كان الرد جامداً كالثلج الذي لم تذيبه كلمات سارة المليئة بالشجن والحزن، وشعر طارق بأن سارة قد أمسكت بكل خيوط مشاعرها؛ حتى لا تنفرط أمام نادية، وشعر برغبتها في القفز إلى أحضانها، ولكن شعورها كطبيبة سيطر على الموقف، وذهبت سارة في أحد جوانب الغرفة؛ لتلقي بنفسها في يأس واضح على أحد المقاعد، وبدأت سؤالها:

- إن كان لا يزعجكِ، أريد أن أطرح عليكِ بعض الأسئلة؛ لعلي أجد في إجابتها غايتي. فأومأت نادية برأسها بالموافقة:

- هل تذكرين أي شيء من حياتك السابقة؟ وكان الرد صادم وواضح:

- كلا، لم أعد أذكر شيء، بعض لمحات لأشخاص لم أستطع تحديد ملامحها، ولقطات تأتي وتختفي في لمح البصر، كومضات نور تأتي من بعيد وترحل مسرعة، دون أن تهديني إلى طريقي في الخروج من ظلمتي.

فأكملت سارة:

- طريقة إجابتك يا سيدتي تبدو أنك حصلت على تعليم فائق، أتذكرين إلى أي مستوى تعليمي قد وصلت؟

كلا للأسف، لا أتذكر.

وقفت سارة، وأكملت:

- لا نريد لك الإزعاج أو الارهاق.

وفي ذكاء وتصميم طرحت سؤالها الأخير قبل مغادرتهم الغرفة:

- تشبهين إحدى قريباتي كثيراً، وهي بعيدة عني منذ مدة، هل أستطيع تقبيلك واحتضانك إن لم يكن هذا يضايقك؟

وأجابت لتزيل كل حياء، وشعور بالحرج لدى سارة:

- اقتربي يا ابنتي.

وهنا رأى طارق أحضان دافئة، دامعة، متوسلة من سارة لكي تتعرف عليها، وبادلتها نادية القبلات، وأسرعت سارة بالخروج من الغرفة، بعد أن استأذنت نادية في الرحيل، وقام طارق بإلقاء التحية على نادية، وبخطوات أقرب إلى العدو

سار خلفها؛ محاولاً تهدئة بركان الدموع الذي لم يتوقف إلا عندما سألها سؤالاً أدهشها، وقام بإخراجها من جميع مشاعر الحزن:

- هل هذه السيدة والدتك؟

فأجابت بتصميم وعناد:

- نعم هي دون أدنى شك!

وفي طريق خروجهما من المستشفى، سأل طارق نفسه:

- هل من حق سارة الحصول على المذكرات التي سرقها أو عثر عليها في المنزل؛ فهي وإن لم تكن أمها، فهي أقرب شخص منها، وهي الأحق بالمذكرات، أو أن الحل الأفضل للجميع ألا تظهر المذكرات للأبد؛ حتى تجد نادية الرعاية، والاهتمام، والعطف، وهو ما تحتاجه في هذه الحالة التي وصلت إليها، فاقدة للذاكرة، فاقدة للبصر، فاقدة لعائلة تحتويها، وكان في حيرة وتردد كبير، ظهرت أمام عينه لافتة كبيرة، كيف سيخبرها عن طريقة حصوله على المذكرات؟ صمت ولم تكن لديه إجابة!

أصرت سارة على توصيل طارق لمنزله، وغادرت مسرعة، بعد أن تبادلا أرقام الهواتف، ودونت له رقمًا شخصياً تجيب بنفسها عليه.

صعد درجات بيته، وتضارب في عقله، ونزاع وتشابك منذ رؤيته لنادية، حتى انتهائه من المذكرات، نزاع وضجيج برأسه، وصخب بداخله، وكانت نفسه متشوقة لاعتراف بما فعل وهو سرقة المذكرات ،وهدأ كل شيء بالوصول إلي نتيجة أخيراً وهو إعطاء المذكرات لسارة.

طرقات ورنات عند باب شقته، وضوضاء كبيرة، توجه مسرعاً إلى إخفاء المذكرات وبنفس السرعة، عاد ليفتح باب شقته، عادت الأسرة الصغيرة هيام وحازم وآدم وبلوم وعتاب، قالت هيام:

- إنك لا زلت على قيد الحياة.

وأجاب طارق، وبضحكات ولمحات من عينيها فهمها، لقد اتصلت على هاتفه مرات عديدة دون رد، اعتذر منها حتى تهدأ، ولا يزداد غضبها، وتعلل بكل الأسباب التي تخرجه من دائرة غضبها، فهي شقيقته الوحيدة، عائلته بأكملها بداخل قلبها، وبعد المحاولات أخيراً، جاء السلام بينهما، وضحكات بصفاء النوايا؛ فلقد خرج سالماً من قوقعة غضبها، مد طارق يده ليأخذ آدم وعاود قذفه في الهواء وتقبيله، ووجه طارق حديثه لآدم مبتسماً:

- يا لك من جسم صغير، تقبض بيديك على قلوب من حولك.

ضحك آدم لنظرات خاله إليه، وتوقف طارق عن قذف آدم نظرا لخوف شقيقته، اختفيا حازم وهيام لبعض الوقت، وعادا محملين ببعض الأطباق التي أعدتها هيام، وعادت بعض الروائح تتنشر في البيت، وردد طارق:

- النساء يحولن أشياء بسيطة إلى سعادة متحركة، وجلس الجميع، وتوسط آدم مكانه فوق المائدة، وتناول الجميع الطعام بشهية، ووحشة للمة غابت بعض الوقت، بعد الانتهاء قامت هيام بتحضير عصائر طبيعية، من مجرد خلط بعض حبات الفاكهة، ووضع الماء المثلج، وبعض السكر عليها، وبعض حبات من الليمون؛ فتعطي طعم لاذع ، ومميز، وشهي، فتتميز بطعم يجعلها بعيدة جداً عن العصائر المعلبة، وتسامر الجميع لمدة لم تدم طويلاً، وبدأت الجفون تطلب الإذن بالإسدال واحد بعد الآخر، وانتشر النوم كالعدوى السريعة، وذهب كلًا منهم إلى غرفته.

أغلق طارق باب غرفته، وقف متوسطاً الغرفة يمسح برأسه، وكأنه يقوم بملأ ذهنه ببعض الأفكار التي يحتاجها في مقابلته لسارة اليوم التالي، مردد لنفسه:

- سأقوم بتسليم المذكرات.

وبيأس من رفض ذهنه لجميع الأفكار التي حاول إخراجها بشكل لائق عن سرقته للمذكرات، وما كان من عقله إلا التمسك بالحقيقة، وكما هي بلا تحريف أو تجميل، ذهب إلى نوم، مستسلماً إلى الحل الذي ارتضي به كلًا من نفسه وعقله.

في الصباح استيقظ على رنات منبه الهاتف، يعلن عن نوبة استيقاظ، وقام بطقوسه المعتادة بهدوء وراحة، لم يتعود عليها، أخيراً سيزيح عن كاهله حمل ثقيل طوال مدة بقاء المذكرات معه، كان الجميع غارقين في النوم، توجه إلى مقر عمله؛ وجد أن الشركة لم تفتح أبوابها، هناك ساعة تفصله عن الموعد، أخذ يدور وتذكر المكان الذي ذهب إليه قبل ذلك، فتوجه إلى أحد المقاعد، وأخذ يلف بعينيه في المكان من حوله، وجاء شاب إلى حيث يجلس؛ يسأله عما يريد تناوله، وطلب كوباً

كبيراً من القهوة حتى تكون له يد العون في الإفاقة من النعاس، الذي لاح فوق جفونه، تبسم الشاب بتهذيب ورحل، ولم يمر سوى دقيقتان، ودخلت من الباب ندى؛ وكأنهما على موعد، توجهت مباشرةً إلى حيث يجلس، وارتسمت علي وجهها علامات من الدهشة، ممتزجة ببسمة خفيفة، وبتهذيب توجهت إليه بسؤال:

- من أين عرفت المكان؟

أخبرها بأنه وببساطة أثناء تجوله حول مقر الشركة وجده؛ تبسمت وقالت أنه مكانها المفضل لتناول وجبه الإفطار، وكوب من القهوة الكبير، وهنا ضحكت عندما كان الشاب يضع أمامه الكوب الذي أعده من القهوة بحجم كبير؛ فضحك هو الآخر، وغاب الشاب دون سؤالها عن طلبها، وعاد بعد دقائق بما اعتادت أن تطلبه، ولدقائق كاد الصمت أن يقتل بداية الحديث؛ فبادرها بأول سؤال جاء على ذهنه:

- منذ متى وأنتِ ترتادين هذا المطعم الصغير؟

أجابت أنها جاءت في يوم إلى مقر الشركة قبل موعد العمل بحوالي ساعة ونصف؛ فتجولت حول المكان، وكان المطعم لم يفتح أبوابه بعد؛ وقفت بجواره منتظرة، ولم تمر سوى دقائق قليلة؛ حتى أتى رجلاً في الأربعين أو أكثر من عمره، قام بفتح المطعم، وتهلل وجهه حينما رآني، قام بإعداد وجبتي، وقدمها لي حتى جاء بعد قليل شاب آخر، وأخبرني أن من قدم ما طلبته هو مالك المطعم، وأنه نادراً ما يقوم على خدمة عملائه، ومنذ ذلك الحين وأنا آتي كل صباح لتناول وجبة الإفطار، رغم أن أمي تستيقظ قبل موعدي، وتلح علي أن أتناول وجبة منزلية، مغذية، ونظيفة بالمنزل، ودائماً أقول لها:

- افعل ذلك يا أمي؛ فالمكان برغم صغر مساحته يقدم وجبات نظيفة، وفوق كل ذلك؛ فأنا أشعر براحة كبيرة فيه؛ لأن كوب القهوة الذي يقدمونه هنا له مذاق يميزه، وتبسم بعد أن أنهت الإجابة عن سؤاله بجميع أركانه، وكان قد انتهى من تناول قهوته؛ فبادرته بسؤال:

- هل أعجبك طعم القهوة؟ وهو يبتلع أخر ما تبقى داخل فمه.

أومئ برأسه بالموافقة، أي أنها أعجبته، ومرت الساعة دون ملاحظة منهم؛ حتى سمعوا دقات الساعة الثامنة تدق في إحدى جوانب المطعم، من ساعة معلقة على أحد الحوائط؛ فسارعوا بالخروج والرحيل؛ متوجهين إلى العمل، ولم يتحدثوا أثناء سيرهم، وكان طارق يسترق النظر إلى ملامح وجهها كل عدد من الخطوات؛ حتى استطاعت هي أن تحصيها وفاجأته، وهي تضحك بقولها:

- أنت تنظر إلي كل عشر خطوات!

ضحك وهو يشعر بإضافة جديدة فوق مشاعره تجاهها، تخطت كثيراً مشاعر الغضب ودخلت إلى منطقه الارتياح، ولم يستطع عقله تسمية تلك المشاعر، بل تركها للوقت والظروف؛ هي التي تحدد هوية مشاعره وطبيعتها.

بدأوا في العمل مباشرةً، دون الخروج عن طبيعة التدريب، وكانت تستفز لديه القوة التحفيزية في الإجابة؛ لتخرج أفضل ما فيه، وسرعان ما يجيب بغضب، ويقفز بها لأبعد مما تتمنى منه كمبتدأ.

مر اليوم بكم غني من المعلومات، وبلا أي انتقاد لاذع، يذكر منها فهو يجتاز اليوم بأكمله سابقاً غيره، بل ومتفوقاً عليهم في الإبداع الذهني لأفكار سهلة وبسيطة؛ لتوصيل معلومة ثرية بطريقة مبدعة؛ جعلتها تبدي تعجب وراءه انبهار، وكأن لسان حالها يقول:

- أين كنت أيها الشاب؟ بعيداً عن مكانك!

بعد الانتهاء من يوم جديد في عمله؛ قام بالاتصال بسارة وبادرته بسؤاله:

- هل من جديد؟

وبما أن لا جديد؛ طلب منها تحديد مكان لمقابلتها بعد نصف ساعة في أي مكان ستتوجه إليه ،قالت أنها ستتوجه إلى إحدى المحافظات؛ لإجراء جراحة عاجلة، وبينما وصل إليها شعوره بالخيبة، حدث نفسه:

- ها هو يوم آخر يضيع دون تسليم حمله الثقيل، وجاء صوتها بالانفراج؛ فقالت:

- سأمر على المنزل لدقائق لأخذ بعض المتعلقات لوقت لن يطول.

اتفق طارق معها على مقابلتها في ذلك الوقت، وكالغريق المتعلق بمجرد قشة، لاحت أمامه فتمسك بها ولم يتركها.

توجه طارق إلى مكان اللقاء، حاملاً معه المذكرات، ولم تمر سوى خمس أو ست دقائق؛ ظهرت سيارة سارة، وأشارت إلى حارس منزلها بالاقتراب، ووضع بعض الأوراق والمتعلقات في المقعد الخلفي، ولوحت لطارق الواقف بالقرب من

السيارة بالتحية، واقترب طارق، وصعد بجوارها، وانطلقت سارة بالسيارة، وهي في عجلة من أمرها، لم يجد طارق البداية لحديثه؛ فهو على وشك أهم الاعترافات، لكنه وجد نفسه أمام فيض من المشاعر انفجر أمامه، بدأت حديثها بأنها لم تنم منذ الأمس وسألته:

- هل تعلم لماذا؟ لسعادتي وفرحتي؛ فأخيرًا عثرت على أمي، لقد أفتقدتها في حياتي كثيراً، ولا أستطيع وصف مشاعري حينما علمت أنها اختفت بعد سفري، وسألت أبي مراراً، ولكن الإجابات كانت تصدمني بأنه لا يعرف عنها شيئاً!

والسيارة تسير بهم، وهي مستمرة في حديثها:

- في أحد اتصالاتي به وسؤالي عنها، وقبل أن أكمل حديثي نهرني محذراً أنها المرة الأخيرة التي سيجيب عن أسئلتي؛ فهي قد تكون هربت مع عشيق، أو ماتت، وأغلق التليفون، لم أستطيع أبداً مواجهة أخي بما يدور في نفسي؛ فهو الامتداد لأبي في كل شيء من اللامبالاة، وعدم الاكتراث لأي شيء، ولا حتى لأمي!

تحدثت سارة، وأخرجت أعباء جديدة؛ كتمها طارق في نفسه، كل هذا وهو ممسك بمغلف ورقي يضع فيه المذكرات.

قطعت السيارة مسافات طويلة دون أن يدري، وهو جالس مقيد بحديث مملوء بالحب والدفء، وأكملت:

- أخيراً وجدت أمي، لقد كانت السند لي حتى وصلت لما أنا فيه، ولم أنسى كلماتها حينما كان يخبت أملي ويبعد حلمي عن عيناي، كانت تمسك بيدي وتضعها على قلبي وتقول أن بداخل ذلك القلب قوه لا تقدرينها، وبداخل صدرك إصرار لابد أن توقظيه؛ لتكملي طريقك وتصعدي درجات حلمك، ولا تتوقفي، ولا تلتفتِ إلى الخذلان والهوان، وحينها سقطت الدموع من عين أمي، وملأها شعور بالفقد، ولكنني لم أستطع معرفة ما تفقده، كل تلك الكلمات ولم تترك سارة لطارق فرصة، ولو دقيقة ليرتب اعترافه، أو حتى ينطق بما يدور بداخله، وذهبت كل خططه هباء، أمام هذا الكم الهائل من المشاعر المستوحشة لوجود أُم تضمها، رغم وهن وضعف تلك الأم، ولكنها قوتها حتى وهي في تلك الحالة.

ولا زالت تتحدث، ذهب طارق إلى ظلمة مليئة بتساؤلات تزاحمت كلها على أبواب عقله، وبدأت بسؤال:

- ما فائدة المذكرات الآن؟ لقد أيدت سارة أن السيدة الراقدة في المستشفى هي نادية قاسم، وإن كانت نادية رحيم، نعم حتى وإن كانت نادية رحيم؛ لقد كانت الأقرب لنادية قاسم، وما الداعي لمعرفه من تكون، هل من الداعي معرفه أسرار تداعت ولم يعد لها أي وجود؟ وغيرها من التساؤلات، ووجد كل الإجابات تقول لا، لا تعطيها المذكرات؛ فكلتا السيدتين نادية وسارة في حاجة إلى بعضهما البعض، وعيش حياة افتقدوها.

بعد أن جففت سارة بعد الدمعات التي خانتها وسقطت مع كلماتها، بادرت تسأله:

- ما الذي تحمله بيدك؟

تبسمت وأكملت:

- أشعر بأنك أحياناً تقبض عليه بكلتا يديك، وتضمه بطريقة غريبة، أهو تقرير خاص بأمي، أم شيء خاص بعملك؟

صمت طارق لثواني؛ يحاول أن يجد كلماته التي أخرستها سؤالها المباغت، للحظة من التوتر وعدم ترتيب الكلمات جاهزة بالرد، كاد أن يقدم اعتراف كامل بما فعل، ولثواني كأن صوت داخلي يحدثه بأن المذكرات وقعت في يده لسبب ما، وكأنه الشخص الملائم لهذه المهمة، وقبل أن تخرج أحرف الاعتراف، وجد نفسه يقول كلمات مختلفة، ونطق أخيراً قائلاً:

- أنا عاشق محب للروايات والقصص، ذلك المغلف هو رواية اقترضها من زميل، وأنا في طريقي لإعادتها.

وسألته:

- الرواية من أي نوع من أنواع الكتابات؟

رد بأنها:

- من النوع الإنساني والاجتماعي.

ابتسمت سارة بسمة خفيفة، ونظرت إليه وقالت:

- هل من الممكن سرد أحداثها، أو مجرد فكرة عنها، وتابعت أنها تحب القراءة بشكل عام، وتهوى الروايات، ولكن وقتها ومهنتها جعلت من الصعب إيجاد وقت ولو قليل للقراءة.

سرد طارق لها أحداث مختلفة وقصة أخرى، ثم وفجأة تذكر أن السيارة تسير مبتعدة على الطريق الزراعي، وتعلل بموعد مع صديق، هدأت سارة من سرعتها بحثاً عن محطة حافلات، وبالقرب من إحدى المحطات توقفت السيارة، وعلى موعد باللقاء ابتعدت سارة، ووقف طارق شارد الذهن، لم يكن قد رتب أفكاره؛ فكل ما حدث بعيداً كل البعد عما خطط ورتب له، ومر أكثر من نصف ساعة، ونظر إلى هاتفه ووجد العديد من الاتصالات التي لم يشعر بها، ولم تكن لديه المقدرة النفسية على التحدث، كان يريد بعض من الصمت النفسي؛ ليهدأ ويعيد ترتيب توازنه الداخلي؛ فسرقة أي شيء بعيد كل البعد عن شخصيته، ما الذي ورط نفسه فيه، ولماذا قام بذلك؟ وصلت الحافلة، اختار مقعد بجوار النافذة؛ عله والطرقات تسير أمام عينيه تأخذ معها كل ما يدور بداخله، وتسير بها وترحل بعيداً، ويشعر أخيراً بالهدوء، ولكن كيف والمذكرات بين يديه، ونظر إليها مطولاً ومر أمامه كل ما حدث، وعثوره على المذكرات هو دون أنور أو ضياء، وبعد أن كان مقتنعاً بتسليمها؛ أيد كل ما فيه عدم تسليمها، وتساءل هل فعل الصواب؟ وجاءه يقين عقلي يؤيده وموافقة من كل مشاعره بصواب فعلته، وأن ما قام به هو الأنسب للسيدتين.

تبسم حينما تأكد له قراره بالاعتذار عن فعلته، ولم يترك يقينه بما قام به منذ ساعة واحدة أنه القرار الأنسب والأصح على الإطلاق.

والحافلة تسير قاطعة الطريق وراء الاخر؛ تقطع معها كل طريق للتراجع عن القرار الذي أتخذه، وعندما وصلت الحافلة، وصل معها التأكيد والاستسلام لما هو آت.

عاد طارق إلى شقته، ولم يجد مجيب لطرقاته على بابها، أخرج ميدالية المفاتيح، وهنا تذكر ميدالية نادية التي بحوزته منذ الحادث، وقال لنفسه:

- حان التخلص من بعض الأعباء، ووُجِد الشخص الذي يجب أن يتسلمها.

فتح الباب بهدوء خوفاً من أن يكون من بالبيت نائمين، بينما كان يغلق الباب؛ وقعت عيناه على ورقة كبيرة موضوعة على مقعد أمام الباب، مكتوبه بخط يد هيام، مكتوب فيها:

- بعد مساء الخير، اتصلت كثيراً ولم تجب، توجهنا إلى شرم الشيخ لبعض الأيام، سأتصل بك أنا وحازم حين وصولنا.

دخل طارق إلى حماماً دافئاً على غير عادته؛ لشعوره ببعض الإرهاق، وطال وقوفه تحت المياه، لا يعرف لماذا بدأ وجه ندى يأتيه أمام عينيه كحلم يقظة ويخفت، وما مر به طوال اليوم، نظر بوجهه إلى الأسفل؛ علَّ الماء وهو يبتعد ويتساقط فوق عقله، يذيب بعض ما علق به من آثار.

بعد انتهاء الحمام، رنين هاتفه جعله يسرع الخطا ويلتقطه؛ وجد سارة تخبره بأنها أنهت العملية الجراحية بخير، وإنها تريد أن تتحدث إليه لدقائق؛ فوافق على الفور، أخبرته أن أمامها حوالي الساعتين لتصل تحت منزله، لم يحسب الوقت الذي ظل فيه واقفاً تحت الماء، ولكن يبدو أنه استمر طويلاً، بعد التقاط ما وصلت إليه يديه من طعام، وشرب كوب من العصائر التي أعدتها هيام وتركتها في الثلاجة، ارتدى ما وصلت إليه يديه من ملابس، وبعد مرور بعض الوقت وهو واقف ينتظر سارة أمام البيت؛ وجدها تأتي من بعيد؛ لوح لها بيده، وصعد إلي السيارة بجوارها، وعندما حاولت قيادة السيارة لتبتعد؛ وضع طارق يده على مقود السيارة مانعاً تحركها؛ نظرت سارة وتفاجأت، وبخوف واضطراب شديد التفتت؛ فناولها طارق الميدالية، وبفطنتها سهلت عليه الأمر قائلة:

- مفاتيح أمي؟

لم يتحدث، ولم ينطق بحرف بل حرك رأسه إلى أعلى وأسفل بالموافقة، وأثناء ذلك كان يشير إلى القصر القابع في أركان الحي، وبسرعة بديهتها قالت:

- أهذا هو؟

مره أخرى كعرائس الماريونيت التي نقوم بتحريكها بالأوتار، قام بنفس الحركة برأسه التي تعني الموافقة.

هبطت ساره مسرعة ومتوجهة إلى البيت، وحاول طارق المغادرة، أشارت بيديها تستوقفه، وجعلته ينتظر لا يعرف ماذا تريد منه؟ وفي هذه الأثناء وجد ضياء يقترب منهما، ولم تكن سارة قد قابلته من قبل، قام طارق بتقديم كلاً منهما للآخر، ووجده مشدودًا إلى وجه سارة، في ملامح تكررت أمامهم، وتحدث ضياء قائلاً:

- أخيراً عثرت على ابنتها.

وكان رد طارق متوفراً على أعتاب فمه:

- لا نعلم إن كانت ابنتها أم لا؟

ولكن لم ينطق به، ولم يجد أمامه سوى الموافقة على سؤال ضياء، ولف الحضور لحظات من الصمت قطعتها سارة متحدثة:

- فلنتوجه إلى بيت أمي، ولنحاول أن نكتشف ما بداخله، وربما نجد صور لها تجمعها بآخرين أثناء فترة ابتعادها عنا، تكون يد العون لنا في إخراجها من حالتها.

نظر ضياء لطارق متحدثين بأعينهم:

- لقد دخلناه ولم نخرج منه بأي شيء يفيد.

ولم يستطع أحد منهما التحدث عن ذلك خشية غضب سارة، وكأنهما اتفقا على الصمت وعدم البوح بأي شيء.

توجه الجميع إلى القصر، فتحت سارة بمساعدة طارق الباب الحديدي الكبير، الذي يتوسط السياج، وتوجهت إلى الجانب، وجدت باباً حديدي أصغر حجماً، نظر ضياء إلى طارق مندهشين؛ كيف لم يلاحظوه من قبل؟ فتحت سارة الباب، وجدت خلفه سيارة، مغطاة بغطاء قماشي؛ فأزاحت الغطاء، وإذا بسيارة بلون أزرق لامع، بمقاعد بلون الأحمر القاتم، وتبدو السيارة بحالتها كالجديدة، فتحت سارة الباب لتبحث داخل الأدراج الأمامية عن أي إيصال، أو أوراق، ولكن دون جدوى؛ أغلقت أبوابها بيأس، وتوجهت إلى الباب، قامت بفتحه وعبر الجميع أبواب متحف نادية قاسم، أو رحيم، هكذا كان يشعر طارق أنه متحف فني الروائح، الأثاث، التحف المتواجدة بداخله.

أول ما نطقت به سارة:

- يا لهذه الرائحة! لقد حفظتها، كانت تأتي لأمي من صديقة لها تقيم في الكويت، اسمها نادية رحيم.

وهنا شعر طارق بانقباض؛ حين سمع الاسم؛ فهو يعرف من هي؟ بل عاش معها لحظات دقيقة في حياتها، ولكنه حاول أن يظهر بمظهر المتلقي للمعلومة لأول مرة؛ فيظهر التعجب أحياناً، أو الاستغراب بعض الشيء، وسبقتهما سارة صاعدة إلى الدرجات للدور العلوي، وأزاحت الستائر متوجهة إلى غرفه نومها، وحينما وقعت عيناها على لون الغرفة، قالت:

- هذا لون من ألوان أمي المميزة.

وأمسكت بخطابات البنك المدون عليها الاسم، نادية قاسم شاهين الببلاوي، ألقت نظره سريعة دون اهتمام، فألقتها مرة أخرى في مكانها، وسارت وهما ورائها إلى الغرفة المغلقة، وحاولت فتحها، ثم وبفطنة أشعلت الدهشة لدى طارق وضياء، نظرت إلى ميدالية المفاتيح التي تحملها، وحاولت بأحد المفاتيح ولم تفتح، وكررت المحاولة بالآخر، وفتحت الغرفة، وأضاء ضياء الغرفة، وكأنه يحاول المساعدة، وقفا خلفها جاعلين أول المبادرات لها، مدت يدها وكأن شيء يناديها خلف خزانة الملابس؛ ففتحتها لتجد ما بها من ألبوم صور، أمسكت بيديها الأغلفة القماشية لتفتحها، وعثرت على ما بداخلها من ملابس لها ولشقيقها يوسف، وبين لحظات القوة التي حاولت ادعائها؛ لمعت عيناها بدموع حبستها طويلاً؛ فانهارت ونطقت محاولة التماسك:

- هذه القطع مفضلة من ملابسي أنا ويوسف.

ودون قصد منها سقطت دموعها كخيوط متصلة بلا انقطاع، وبعمق هذا الحزن وقوة الشخصية التي تقف أمامهما، وبصلابة عجيبة استطاعت التوقف عن البكاء، وهنا سؤال قد تمت الإجابة عنه:

- لمن هذه الملابس؟

صعدت إلى الدور الأخير، وهو عبارة عن الغرفة المخزن بها قطع الأثاث، هبطت بسرعة الدرجات، وتوجهت إلى البهو، وهما وراءها وقبل المغادرة تجولت بعينيها في الأرجاء، وكأنها تبحث عن صورة أو تحتضن تلك الجدران التي عاشت وسطها أمها لتحفظها، توجه الجميع إلى الخارج بعد إغلاق الأضواء والأبواب.

قبل أن تغادر سارة، شكرت ضياء كثيراً؛ على ما قدمه من مبالغ مالية لإدارة المستشفى، ووعدت بردها، ومع محاولة ضياء الرفض؛ فهو يكفر عن ذنب ابنه، ولكنها لا تعرف ورفضت رفضاً غير قابل للمفاوضة، ووعدت برد المبلغ كاملاً.

ابتعدت سارة بسيارتها، وبدأ ضياء بحديث، وبصوت مملوء بالقلق؛ خشية أن تبحث عمن دهس أمها بالسيارة، وتعرف الحقيقة، وممتزج بحسرة إعادة الأموال؛ حتى غسل الذنب لن يستطيع القيام به، قائلاً:

- أخيراً وجدنا عائلتها.

محاولا إظهار السعادة من أجلها، ولم يكن لدى طارق رد؛ فهو من قرأ المذكرات، ويعلم أنه من الممكن أن تكون ليست هي؛ فهو يعلم أنها ليست واحدة، بل اثنتين!

دار حديث حاول ضياء فيه الابتعاد عما دار منذ قليل، وبعدها عاد طارق إلى شقته، وللحظات ظهر وجه ندى مره أخرى أمامه، وبدأ يسأل نفسه:

- لماذا كلما يشعر بالقلق أو الحيرة أو الحزن تأتي أمامه ملامحها الهادئة، لماذا هي دون غيرها؟

أخرج الهاتف؛ ليجد كالعادة اتصالات كثيرة من عمته وهيام، وتفاجأ حين وجد اتصالاً من ندى، بحيرة ردد بداخله:

- هل كانت تسمعني حين ظهرت ملامحها أمامي؟

لتأخر الوقت لم يحاول الاتصال بها، بل أرسل لها رسالة بأنه لم يسمع رنات الهاتف، ويعتذر عن عدم الرد.

ألقى بجسده على الفراش، ولأول مرة يشعر بالندم على تفويت اتصالا ما، أخذت الافكار تنادي بعضها حتى أرهقته، وبتثاقل وعدم رغبة تحرك أخيراً؛ لتغير ملابسه، وتوجه لإحضار بعض حبات الفاكهة من الثلاجة، وتناول بعضها ثم آوى إلى فراشه، وفي سقف غرفته تأرجحت أشياء كثيرة أمام عينيه، بدأت أحداثها بالمذكرات التي مرت أمامه كفيلم سينمائي يشاهد أحداثه، ولم يكد هذا ينتهي؛ حتى اتصل به شريط حياته، وحاجته إلى من يبوح له بما يدور بداخله، وفقدانه لوالديه، وانشغال شقيقته بحياتها وللمره الثالثة في يوم واحد؛ لاح وجه ندى الهادئ، كل هذا لف جو الغرفة بمشاهد متحركة؛ حتى ثقلت جفونه، وراح في النوم؛ فكان النوم ختام لأحداث يوم مليئ بالإرهاق الذهني والجسدي.

في صباح اليوم التالي؛ توجه طارق إلى مقر عمله محاولا البحث عن أكثر الاسباب المقنعة لعدم الرد على اتصال هاتفي من مدربته في العمل، دخل غرفته ووجدها فارغة، ولم يجد ندى على مكتبها، بانقباضات انتظر بعض الوقت؛ حتى وصلت وجلست وراء مكتبها، دون النظر إليه، وجهت إليه التحية، وبادرته بأنها قامت بالاتصال به لتخبره أنه تم ترقيته، وكالتائه والمتحير رد طارق:

- ماذا؟

قالت:

- نعم، لقد قدمت اسمك للمدير الاقليمي لمجموعة الشركات حينما سألني عن الأفضل في تخصصك.

فرح طارق، وبدت على وجهه علامات الانتصار، ولم يكد يكمل كلماته؛ حتى قطعتها طرقات على الباب لأحد العاملين الذي طلب من طارق التوجه إلى المدير الإقليمي للمقابلة على الفور، نظر طارق إلى ندى مستفسرًا، وسار وراء الموظف؛ ليرشده إلى غرفه المدير، طرق الباب، ودخل ليقدم نفسه للمدير:

- اسمي طارق أحمد كيلاني.

وهنا أشار المدير بيده للجلوس على أحد المقاعد حول مكتبه الهائل الحجم، أنهى حديثاً على هاتفه، ورحب بطارق، ودخل في موضوع استدعائه مباشرةً:

- هل لك اهتمام بالسفر؟

فأجابه انه لم يفكر فيه من قبل؛ فسأله السؤال الثاني:

- حتى وإن كان هذا السفر إلى بعض المقرات الخاصة بالشركة المتواجدة في بعض البلدان الإفريقية، والأسيوية؛ لتدريب العمالة على الأساليب الحديثة للبرمجة، وبراتب شهري أربعة وربما خمسة أضعاف راتبك، وبدلات للسفر، وبعض الحوافز الإضافية، ومفاجآت أخرى؟

فسأله طارق:

- هل سأقضي حياتي في السفر والتجوال؟

وأجاب المدير:

- سؤال منطقي وفي مكانه.

وأكمل حديثه:

- للشركة في كل تلك الدول مقرات مجهزة، وتستطيع أن تصطحب معك من تريد، لحين انتهاء تدريب العاملين، ومن ثم العودة، وتقديم التقارير عن البرنامج التدريبي، وترتيب العاملين بالمقر على حسب تلقيهم للبرنامج، ومن منهم وصل للمستوى الأول والثاني وهكذا، وبعدها تتحدد وجهتك التالية.

نظر المدير إلى طارق من وراء نظارته؛ محاولا استكشاف الرد قبل النطق به، جاء دور طارق بسؤال:

- هل من الممكن أن يُترك لي مساحة للتفكير؟

فأجاب المدير:

- بالتأكيد، ولكن هذا النوع من القرارات لا يجب أن تتخذه منفرداً؛ فهذا النوع من الفرص تـأتي مرة واحدة، ونادراً ما تأتي مرة ثانية في حياتنا.

صمت وقدم له مهلة اسبوع للتفكير والرد؛ حتى يعطيه قرار نهائي، غادر طارق غرفة المدير، وهو في حيرة كبيرة، ودون تحسب للأفكار، وجه ندى مرة أخرى يقف أمامه مغلقًا أبواب التفكير، التي كانت بدأت منذ لحظات في التفتح، ولكن أين موقعها في حياته، وما طبيعة المشاعر، أهو إعجاب بالشخصية؟

وهنا استأذن عقله بالتوقف عن إرهاقه بكثرة التساؤلات المتتالية؛ حتى يستطيع دراسة جميع القرارات على كل الأصعدة سواء قرارات شخصية، أم قرارات عملية توجه إلى المكتب، وكانت المفاجأة التالية هي، ولأنه متميز في تخصصه؛ تم نقله إلى غرفة أخرى.

****

الفصل التاسع

سمع طارق حديث ندى عن الانتقال إلى غرفة أخرى بصمت، وبدون حتى أن ينظر إليها، استدعت ندى أحد العاملين؛ ليرشد طارق إلى غرفته الجديدة، سار من خلفه لا يعرف إلى أين ستأخذه المفاجآت، دخل إلى الغرفة الجديدة؛ ليجد أربع زملاء، وتفاجأ أنه ولحصوله على بعض الكورسات المتقدمة في تخصصه، ولتفهمه وإبداعه في الطرق الحديثة للتدريب؛ أصبح يرأس جميع من في الغرفة، أخذت الأحاديث تدور من حوله في الغرفة بين الزملاء، ولكنه ليس من النوع الذي يلتفت إلى أحاديث تهدر الطاقة والوقت، ولا تأتي بالخير معها، أنهى يوم العمل محاولاً اللحاق بندى؛ فوجد أنها قد سبقته بالمغادرة، سأل نفسه:

- لماذا يريد أن يراها؟

وردد لنفسه مرة أخرى أنه لابد من فرصة؛ لتحديد هوية تلك المشاعر، غادر طارق مقر عمله، رنين الهاتف أخذه من أفكاره، وشعر بأنها صرخات، وليست مجرد رنات للهاتف، وجد سارة هي المتصلة، وقبل أن يجيب حاول ترتيب أفكاره المتداعية؛ حتى لا تسقط بكلمات لا يريد نطقها، بدأت ساره حديثها قائلة:

- سأنتقل إلى قصر أمي، وأولادي وزوجي. صمت طارق قليلاً؛ لمحاولة استيعاب ما يدور، محاولاً فهم خطوات سارة لو كان لديها شك حول نادية، وممكن أن تكون ليست هي، ولكن لم يجد إجابة، ورد طارق عليها:
- أنتِ صاحبة القرار، وأيضاً الطبيبة، ومن المؤكد أن ما ستقومين به سيكون هو الأفضل والأنسب لنادية.

وأكمل قائلاً:

- إنها حالة مرضية حرجة، فاقدة للذاكرة، فاقدة للبصر، وبلمسات قليلة في حياتها تستطيعين تحويلها إلى سيدة سعيدة.

صمت طارق قبل أن ينتقل لحديث مع نفسه:

- اجتمعي أنت وأسرتك حولها، واعطيها ما تحتاجه من الحنان والحب الذي فقدته طوال حياتها؛ فقد عاشت حياة جافة أعطت فيها أكثر مما أخذت، ولم تحصل على أي شيء، وفقدت كل يد امتدت إليها بالحنان والحب.

وشرد بذهنه متابعاً:

- فأي فرق يحدثه، وإن كانت هي نادية رحيم فقد ذهبت إليها نادية قاسم في وقت هو الأهم بحياتها فرممتها، وأقرضتها نجاحاً وشهرة، وأعادت إليها سنوات من البسمة والحياة، وتبادلا مشاعر قل ما جادت بها القلوب في وقتنا.

صمتت نفسه ليكمل حديثه لسارة:

- أنتِ الطبيبة؛ تستطيعين أن تقدمي لها ما لا يستطيع أياً كان تقديمه.

وحواره مع نفسه يأتي في لحظات الصمت؛ أن كلتا السيدتين قد اتحدا في تحدٍ مع كل ما أحيط بهما، فبالنسبة لي أي فرق يحدثه معرفة حقيقة الشخصية لم يعد له وجود في حالتنا تلك، وهنا صمت الحديث؛ منتظراً رد سارة، ولأنه لم يجد كلمات أمامه، وشعر ببكاء صامت على الطرف الآخر، أغلقت المحادثة.

خرج طارق متوجهاً ولو لمرة أخيرة إلى المستشفى؛ ليلقي التحيه على نادية التي عرفها وعاش كل لحظاتها، ولكن دون علمها، وعند باب الغرفة تساءل طارق:

- هل سلم الأمانة ليد آمنة؟

عاد خطوات ليجلس على أحد المقاعد في الممر بين الغرف، وقفز سؤال مرة أخرى:

- هل أخطأ بالاحتفاظ بالمذكرات؟

لم يدع الشك يداعب ذهنه، ويعود به لنقطة تخطاها، وقف متوجهاً إلى غرفة نادية، طرق الباب وفتحه؛ وجد الابتسامة التي حيرته حينما رآها أول مرة، وشعرت به وقالت:

- دائما تأتي في نفس الموعد.

مدت يدها التي لا تراها؛ لتقدم التحية؛ فأسرع بمد يده، ولأول مره تناديه بإسمه منذ الحادثة قائلة:

- مرحباً يا طارق!

لم يمر كثيراً من الوقت حتى وصلت سارة، ومعها مجموعة من الحكيمات، وتبسمت حين رأته، وامتلأ وجهها بعبارات الشكر والامتنان من قبل أن ينطق به لسانها، ألقت سارة تعليماتها للحكيمات عن طريقة نقلها، وتحريكها على أحد المقاعد الطبية، وأنهت سارة جميع إجراءات الخروج من المستشفى، وقبل المغادرة أراد طارق تقبيل رأسها؛ فاحتضنته بحنان الأم، وهمست في أذنه مبتسمة:

- هل تعرف من تلك؟

رد طارق:

- إنها دكتورة سارة.

اتسعت ابتسامتها قائلة:

- إنها ليست فقط طبيبة، بل هي تقول أنها ابنتي.

وعند تلك الكلمة تجمد طارق كتماثيل الشمع؛ منتظراً كلمة تدب فيه الحياة، وأكملت نادية:

- لكني لا أتذكر شيئاً، ولكنها طبيبة، وستقدم لي يد العون لأستعيد ذاكرتي، ومعها عافيتي.

قدمت السيدتان الشكر لطارق وغادرا.

عاد طارق سيراً على الأقدام، لكن ليس من الطريق المختصرة؛ لقد أراد أن تكون الرحلة أطول قليلاً، لم يستطع تحديد مشاعره، هل هو سعيد من أجل نادية؟ حينما وصل إلى شقته اشتاق لحضن عائلي؛ فقام بالاتصال بعمته؛ لقد مرت أيام دون أن يتصل بها، وجاء صوتها معاتباً على إهماله الاتصال بها، ولكنها أكملت وعللت وبررت، بأن العمل أصبح يأخذ القسم الأكبر من الوقت، وأنها فقط تريد الاطمئنان، أخذت تدعو له، لم يخبرها بقصة سفره؛ فهو لا يزال في مرحلة التفكير، بعدها اتصل بهيام، لكن كان الهاتف غير متاحاً، ربما أراد طارق بتلك الاتصالات الحصول على دعم معنوي، نعم تأتي أوقاتاً من الضعف على كلاٍ منا، يحتاج فيها إلى مجرد كلمات بسيطة تجعله يشعر أنه أفضل، أومئ طارق برأسه موافقاً، غفا طارق وهو جالس لحظات دون عمق في النوم، مجرد لحظات وهو بكامل ملابسه، حتى أنه لم يخلع حذائه، وحينما اعتدل في جلسته؛ شعر فجأة بالجوع، قام بتغير ملابسه، وارتدي ملابس رياضية خفيفة؛ بغرض الخروج السريع

إلى مطعم ضياء، وحينما وصل وجده يجلس في مكانه المعتاد، على أحد المقاعد الكبيرة، تبدو على ملامحه علامات من الارتياح، وحينما اقترب طارق منه، ولأول مرة شده إليه؛ ليحتضنه ويقبله، لا يعلم طارق الكثير عن حياة ضياء الشخصية، ولكنه شعر معه بحضن أبوي خالص؛ فقد كان ضياء يشعر أن حادثه نادية ستقلب حياة أسرته رأساً على عقب، ولكن مرت دون علم أحد، وشعر بأن طارق كانت له يد في إغلاق تلك الحادثة المرعبة التي قلبت الحي الهادئ، قدم ضياء لطارق عرضاً؛ لم يستطع أن يرفضه، وهو أنه سيقوم باختيار الأصناف له بنفسه، على شرط أن تكون هذه الوليمة على حسابه الخاص، وبعد رفض وإلحاح من ضياء وافق طارق، وحتى يتم تجهيز الأصناف قال ضياء:

- لقد فتح القصر؟

أجاب طارق:

- أي قصر؟
- قصر نادية قاسم.

وانتظر ضياء أي ردة فعل من جانب طارق، لكنه أكمل:

- لقد جاءت إليه منذ قليل سيارة طبية مجهزة، وبها نادية وسارة، وبعدها بقليل جاءت سيارة أخرى، تحمل الكثير من الحقائب، وبها رجل في حوالي الأربعين من العمر، ومعه ثلاثة أطفال، وهنا ابتسم طارق ابتسامه الرضا عن النفس، ولم يكن النصف الذي عاد وعاش من التوأمين في حاجه لأكثر من ذلك، أسرة يستظل بها من وهج الجفاف العاطفي الذي اجتاح المجتمع.

وهنا صمتا قليلاً؛ حينما أتى أحد العاملين بالمطعم؛ ليقدم لنا ما تم طلبه، وقع اختيار ضياء على أغلب أحب الأصناف لطارق، من الطعام الساخن، فالوجبة الساخنة لمعشر الشباب، تكاد تكون ثروة ثمينة، التهم طارق أكثر ما جاء أمامه، وقدم له ضياء مشروباً ساخناً، وتحدث طارق مع ضياء عن فرصة العمل المعروضة عليه؛ محاولاً الاسترشاد برأي رجل في عمر والده إن كان حياً، وكان رده الموافقة فإذا كنت استلمت العمل منذ مدة، وتم ترشيحك للسفر، فهذا يعني أنك تستطيع تقديم ما هو أفضل، ولذلك وقع الاختيار عليك، وأكمل:

- هناك ستقدم علومك، وسيعطيك السفر خبرات متجددة تجدد بها ذاتك، وصمت منتظراً ردة فعل طارق، ولا زال منتظراً، وهنا حدثه عن ندى ومشاعره التي قفزت فوق قراراته؛ اعتدل ضياء في جلسته، وعاد إلى الخلف قليلاً؛ ليجلس جلسة أكثر ارتياحاً، وبدأ قوله:
- اذهب يا بني إليها، وتحدث معها عن كل ما يدور داخلك؛ فربما تكون هي الهادي في طريقك القادم.

ولم يكمل حديثه، صمت دقائق، وطارق منتظراً بقيه الحديث، أكمل ضياء:

- الحب يا بني وإن كان حقيقياً يأتي كالنور الهادي في عتمة الأيام المظلمة، وأتمنى لك كل التوفيق.

غادر ضياء بعد إلقاء التحية، وكأنه يترك لطارق مساحة من التفكير، واتخاذ القرار الصائب لما سوف تحدده الأيام القليلة الآتية.

غادر طارق المكان، وكأن ستائر من الغيوم أُزيحت من أمام عينيه، لقد أصبح جلي بما لا يدع مجال للشك حقيقة مشاعره التي تسربت إليه، وأهمية اتخاذ قرار في عرض العمل والسفر، وهنا رن الهاتف، كانت هيام تطمئن عليه، وتخبره بموعد عودتهم الذي يحين غداً عند العاشرة صباحاً، وهنا ضحك وقال:

- سأكون في العمل يا حبيبتي.

وردت هي:

- غداً عطلة، إنه الجمعة.

ضحكا على غفلته عن الأيام، وأنهت حديثها وأثناء سيره أمام بيت نادية؛ أتت مجموعة من السيارات، تحمل أجهزة وأثاث، وخرج أحفادها من شرفة البيت؛ ليشاهدوا اصطفاف السيارات وهي محملة بكل أغراضهم.

رأت سارة طارق؛ فلوحت إليه بيدها لتحييه؛ فرد طارق التحية، وأكمل طريقه إلى شقته.

عندما وصل إلى شقته وفتح الباب، وهو ينظر إلى كل شيء داخل شقته، وتساءل:

- هل تدب داخل ذلك البيت الحياة كما حدث مع نادية؟

وبدون أدنى مقاومة استسلم أخيراً لبعض اللمحات في المرات التي التقى فيها بندى، وهو ينظر إلى هاتفه، ويضع يده على رقمها، بحركة ودون وعي ضغط على زر الاتصال، ولم يمانع نفسه، أو يغلق الهاتف، وفي لحظات كان صوتها الهادئ هو الباعث للحياة في جسد امتلأ عن آخره من وحدة دامت سنوات كثيرة، وحينما طل وجهها أمامه، وهو يتخيلها ترد على الهاتف، وبسماتها المهذبة الرقيقة، وكم كان سعيد وقد سرى بداخله تيار الحياة؛ فلقد أضاءت شعلات وراء بعضها في شوارع حياته المظلمة، وطال الحديث عن العمل وعرض السفر، ولم يصارحها بحقيقة مشاعره، واعتبر أن مجرد الاتصال بها كافياً، في هدوء وسكينة لم يعهدها في نفسه؛ بعد أيام من القلق والحيرة، راح في نوم عميق. كعادته استيقظ مبكراً؛ لأخذ حمام سريع قبل قدوم هيام، وفي محاولة بائسة لإخفاء بعض الضوضاء المنتشرة في أرجاء الشقة، أتم مهمته وتوجه إلى الشرفة؛ فوقعت عيناه على الجزء الخلفي لقصر نادية؛ حيث الشرفة الكبيرة تأخذ المساحة الأكبر من جانب من جوانب القصر، رأى نادية جالسة، وقد أُزيحت الكثير من الضمادات عن رأسها، وبدت علامات من الارتياح والسكينة، ابتسم طارق في نفسه؛ لقد عادت سيدة القصر لقصرها، وصل إلى سمعه رنات جرس باب شقته؛ أسرع ليفتح الباب، وقبل أن يفتحه نظر نظرة أخيرة على شكل الشقة؛ محاولاً دخول بعض الرضا عن مظهرها تحسباً لتعليقات هيام، فتح الباب للقبيلة الصغيرة التي تأتي بصخبها المحبب لديه، وكعادة آدم في كل مرة يبتعد فيها؛ يأخذ وقتاً حتى يتذكره، وبعد عناق هيام وحازم، بدأ من جديد مع آدم، ولأنه لا يستسلم وحينما وجد إصراراً من خاله على حمله وتقبيله، وافق وهو يبتسم بسمة على مضض؛ فضحك الجميع على ملامح الصغير الممتعضة، وبعد مشاورات ومداولات بين الجميع عن طعام اليوم؛ اقترح طارق طلب الطعام من مطعم ضياء، ضحكت هيام وجلست بارتياح؛ فلن تقف اليوم لساعات للتحضير، قائلة:

- الطعام الجاهز لنا معشر النساء كنزهة لطيفة في يوم حار.

ضحك الجميع على طريقة الالقاء؛ فكانت تغمض عينيها، وكأنها تنشد أغنية، جلس الجميع، وأخذ حازم يتحدث عن الرحلة، ومدينه شرم وجمال الطبيعة، والرحلات البحرية، ومشاهدة الأسماك، قائلاً:

- إنها مصر، لن تخبو، ولن تزداد إلا جمالاً! عادت هيام بأكواب من العصير الذي تعده، ورأى طارق أنه لابد من مصارحة شقيقته بعرض السفر، وقص الحوار الذى دار بينه وبين المدير الإقليمي للشركة، وما كان من هيام إلا أن قفزت بفرحة، وأخذت تقبل طارق، وهنا تحدث طارق قائلاً:
- ولكنني لم أقرر بعد.

صمتت هيام، ونظرت إليه منتظرة الكلمات التالية، والتي لم ينطق بها، ولكن فهمتها عيناها فصمتت، مر بعض الوقت على الجميع، ما بين التحدث والصمت؛ حتى وصل عامل المطعم بما طلبته هيام من أصناف، وجلس الجميع حول المائدة، ولشعور الجميع بالجوع المباغت؛ نفذت كل الأطباق أمامهم وإلى غفوة أو راحة جسدية ذهب كلاً منهم إلى غرفته.

دخل طارق الغرفة مستسلماً لأفكار وأحلام حول أيامه القادمة، طرقات على باب الغرفة جعلته يعتدل في جلسته، ودخلت هيام؛ محاولة استكشاف ما يدور بعقل أخيها ولمساعدته في اتخاذ القرار الصائب، لم تشعر بأن لديه القابلية للتحدث؛ فلم تضغط على أفكاره لمعرفة الخبايا، بل انسحبت في صمت وهدوء، وتركته ليستجمع الأفكار، ويلملم شتاته، راح إلى غفوه دون أن يشعر بها.

استيقظ محاولاً استكشاف الوقت، أضاء أنوار الغرفة وأمسك بهاتفه، الساعة تشير إلى الثامنة والنصف، ورسالة من هيام بأنها وحازم متوجهان لزيارة أحد أقارب حازم في منطقة المعادي، أعد لنفسه كوباً من القهوة، وبعد أن أنهاه، ارتدى ملابس خفيفة، وغادر إلى تمشية تصفي ذهنه من تشوش أفكاره، لم يشعر بالوقت، وشعر بأن قدماه لم تعد تتحمل؛ فجلس على أقرب مقهى قابله، سحب مقعداً، وألقى بنفسه فوقه، نظر حوله فوجد أكثر المتواجدين من الشباب في نفس عمره أو أقل، وتعجب لهذا الكم من الشباب كيف يهدر أياماً وساعات تمتد إلى سنوات في بعض الأحيان مستسلماً لفكرة أنه لم يجد فرصته في العمل، ولكن اعذرني أيها الشاب؛ فأنت لا تجيد البحث داخل نفسك أولاً، أو خارجها عن مكان يليق بك، فبداخل كلاً منا شغف لمهنة أو توجه لشغل وظيفة يتمناها، ولا تدع مجال لليأس يتسرب إليك؛ فيقتل حلمك قبل أن يولد، ووسط كل هذا عاد طارق إلى مكانه، وبتفحص الوجوه من حوله؛ شعر أن مكانه ليس وسطهم، مكانه حيث يعشق ويتمني لنفسه، حيث أتقن ودرس وطور حلمه ليقفز فوق كل الأماني ويرتقي، وبخطوات تقترب من العدو أكثر من مجرد التمشية ابتعد طارق عن المكان، وكأنه يبعد بنفسه عن هوة كاد أن يسقط فيها، وشعور طالما حاربه وانتصر عليه، وتسليماً بقرار الموافقة على السفر.

وصل إلى شقته، ولم تكن هيام وحازم قد عادوا، ودخل إلى غرفته محاولاً عدم التفكير وتصفية كل أفكاره، والذهاب لنوم يهرب إليه.

في صباح اليوم التالي غادر مسرعاً؛ محاولاً اللحاق بندى ولو بدقائق قبل موعد العمل، طرق باب غرفتها ودخل، نظرت إليه ولمعت عيناها ببريق لا تخطئه الكلمات، وهو واقف على أعتاب الغرفة، أذنت له بالدخول، وألقت عيناها على الأرض في خجل وانكسار لم يعرف سبباً له وقبل أن يبدأ كلماته تحدثت هي، وبنظرات لم تبعد عيناها عن أوراق أمامها،

في محاولة الهروب من نظراته التي كادت أن تخترق صدرها، وتخرج منه اعتراف وتأكيد على مشاعر بدأت ترتسم على تعابير وجهها، فقالت:

- أنا مطلقة منذ عام لزواج لم يستمر سوى أربعة أشهر!

وهنا صمت قلب طارق حتى عن الدقات لثواني، ثم عاد للتسارع، ماذا يفعل، هل يخرج من الغرفة، أيكمل حديثه؟

تساؤلات حيرته؛ فإذا خرج من الغرفة أعلن رفضه لها، وإن استمر أعطى لها أملًا باستكمال طريق لم يكد أن يبدأ حتى صدمته كلماتها، وهنا دخل أحد العاملين بالشركة يبحث عنه، قال له:

- المدير بعث في استدعائك.

وكأنه طوق للخلاص من ورطة سيقع فيها؛ خرج مسرعاً بعد أن استأذنها، وهو سائر في ممرات الشركة، وكأن كم هائل من الدوامات تأخذه بعيداً عن مكانه، وسجن بقضبان حديدية سميكة، قبضت على أنفاسه، ودخل إلى نفق بلا ضوء، لم يخرجه سوى أنه أصبح أمام غرفة المدير؛ فطرق الباب ودخل، وفي كلمات سريعة تقابل ولأول مرة مع رئيس مجلس إدارة الشركة الذي أتي خصيصاً للتعرف عليه، وبحديث بالموافقة على عرض السفر والعمل؛ توعده المدير بمستقبل مختلف، وفرص لم تخطر حتى بأقصى أحلامه، أخذه كل هذا قليلاً مما سمع من ندى وبفرحة ملفوفة بقلق وتوتر خرج إلى غرفته وسط زملائه، محاولين النظر داخل وجهه لمعرفة ما دار مع المدير، ولأن طارق كان يأخذ دائماً بنصيحة قديمة، سمعها من أمه أن الاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان هي نصيحه رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، وعدم التحدث أثناء العمل في أمور لا تخص سوى العمل هو الأفضل دائماً.

مر اليوم سريعاً دون أن يدري، لم يحاول حتى التفكير بكلمات ندى، وتوجه مسرعاً إلى غرفتها؛ وجد أنها قد سبقته بالمغادرة، سأل نفسه:

- لماذا أعدو بتلك الخطوات نحوها؟

فابتسم حين وصل إلى نتيجة مقلقة، ولكنها الحقيقة، ويجب الاعتراف بها، وهي أن شعوره تجاه ندى قد قفز بقلبه إلى نقطة اللا عودة، وأن الحب قد أصاب قلبه بسهامه المؤلمة، وكونها مطلقه لم يعد له حساباً في تلك المعادلة، وعندما توصل إلى تلك النتيجة إذ بهاتفه يرن رنات أشعره بضجيج لا يحتاجه، في تلك اللحظة وجد المتصلة هي سارة، بادرت بقولها:

- لم نسمع منك منذ يومين، أنت فرداً من الأسرة، لا تنسى ذلك.

وهو منصت أكملت نادية ذات القلب الذي يتسع للكثير ممن حولها، ولا زالت بعقل سليم الحجة، وصائب القرارات حتى وهو بجزء صغير مصاب، ولن يهدأ بالي حتى أوصل بها إلى أفضل حالات التحسن، كان طارق سعيداً بما يسمع منصتًا لصوت أضاف إليه ونس وأمان، كان في حاجه إليه، وعلى وعد بمداومة الاتصال أنهى حديثه معها.

توجه إلى شقته، وهو يصعد الدرجات وصلت إلى أنفه روائح امتلأ بها المكان، دق الباب؛ وفتح حازم مبتسماً، وكان آدم يجلس داخل عربته الصغيرة خلف أبيه، وصلت يد طارق إليه لتحمله، وأخذ يقذف به في الهواء قبل أن تراه هيام، وآدم يضحك بصوت عالٍ، وحينما سمع خطوات هيام تقترب؛ توقف عن ذلك.

أعد كل من هيام وحازم المائدة، وبعد طقوسه السريعة من أخذ حمام، وتغيير الملابس؛ جلس طارق صامتاً، وبدأ يأكل بشرود واضح، تبادل حازم وهيام النظرات في شك وارتياب؛ فتلك الحالة لم يعتادوها من طارق النشيط، المبتهج، الضاحك؛ فباغتته شقيقته بسؤال فضح جميع الأسرار:

- متى ستخبرنا عنها يا طارق؟

هنا نظر طارق إليها متفاجئ من الطريقة والسؤال، ورد بكل وضوح؛ فلم يكن ينوي إخفاء شيء عنها، ولكن لم يكن قد تبلور بداخله شيء يقال:

- الآن سأخبركم كل شيء، اسمها ندى

وهنا توجه حازم وهيام إلى ملامح طارق المتحدثة قبل كلماته وهو يكمل:

- هي مدربتي في الشركة، فتاة هادئة الطباع، مهذبة ومطلقة.

وهنا وقفت هيام؛ فنظر إليها حازم نظرة تحذير من ردة فعلها المتفاجئة؛ فجلست مرة أخرى، ونظرت إلى بساط الغرفة؛ وكأنها تحاول بعثرة فكرة علقت بذهنها، وأكمل طارق حديثه، ولم يكمل طعامه؛ فكسر حازم جمود الصمت الذي خيم على الجميع قائلاً:

- قرار الارتباط هو القرار الوحيد الذى لا يستطيع أحد إملائه على الآخر.

وردت هيام:

- ولكن مطلقة؟

فأجاب طارق:

- ما المانع في ذلك؟

حاولت هيام جاهدة إقناع نفسها بما هو مقبل عليه، وأشتد الحوار سخونة بين الجميع، وقطع الحديث أحياناً بكاء آدم، وقد حاولت هيام بكل طاقتها التأكد من تمسك وجدية تفكير أخيها وصدق مشاعره، وانتهى اجتماع الأسرة باتخاذ قرارات، أبرزها لابد من إخبار ندى بعرض السفر، ومصارحتها بحقيقة مشاعر طارق نحوها.

توجه طارق إلى غرفته، وعندما أغلق بابها أمسك بالهاتف ليتصل بندى، ولكن لم يكن هاتفها متاحاً، كرر المحاولة، وكانت النتيجة نفسها، كاد أن يستسلم للمحاولات الفاشلة؛ حتى وجد اتصال من ندى فبدأ حديثه بشكرها؛ لأنها من زكته لدى الإدارة، ورفعت من فرص اختياره لتلك الوظيفة، تحدث معها عن السفر والبلدان المقترح السفر إليها، ثم تطرق رويداً إلى مشاعره، تحدث ولم يمنع نفسه أخيراً من الاعتراف بمشاعره وعرضه الزواج قبل السفر، وتحدث بفيض كبير من الخطط والمقترحات، وهي صامتة، ثم توقف ليتذكر أن لها كل الحق في القبول أو الرفض؛ فترك مساحة من التفكير للرد على عرضه بالارتباط قبل السفر أو في أقرب إجازة له، وختم حديثه متمنياً لها التوفيق سواء قبلت أو رفضت.

جلس على أعتاب فراشه؛ وكانه رافض لغفوة يتوه فيها عن التفكير، ووسط الكم الوفير من التساؤلات؛ بسط جسده بهدوء وبطء على الفراش، وسمع طرقات خفيفة على الباب ايقظت لديه الانتباه؛ فقفز عن الفراش مبتعداً، وتوجه إلى الباب ليفتحه، دخلت هيام لتستكمل معه بعض التحقيقات النسائية عن ندى متضمنة الشكل ولون العينين، وشكل الشعر، ضحك عندما سألته هيام:

- عندما تقف بجوارك ندى أين تصل بقامتها؟ فأجاب طارق ضاحكاً:
- تصل إلى عقلي!

وهنا ضحكت هيام كثيراً لهذا التشبيه، ونظرت إليه قائلة:

- لقد وقعت في الحب أخيراً أيها البطل. وبالموافقة على ما قيل؛ غادرت الغرفة ملوحة بيدها.

انتظر طارق قدوم الصباح؛ ليأتي إليه بآمال وأحلام كبيرة انتظرها، وتفاجئ عندما وجد أن كرم الله كبيراً؛ فبعد الصبر جبر، لقد صبر منتظراً عملا يليق بإمكانياته، وانتظر من تشاركه عقله وقلبه قبل حياته، ورأى أن آماله مقبلة على التحقيق، وتذكر نادية، ابتسم حينما اطمأن أنها وأخيراً وسط أسرة كما تمنت لنفسها، ترعاها وتقدم لها حبًا افتقدته، شعر بأنه قدم ما استطاع لها، وحينما وصل إلى تلك النتيجة ابتسم لإرادة ربانية اختارته دون غيره؛ ليمسك بأسرار وخبايا لن يبوح لأحد عنها، ومع أحلام وآمال قادمة لم يستطع الانتظار أكثر لرد ندى؛ قاوم الانتظار وأمسك بالهاتف، وجاء صوتها كالندى على جفاف حياته، يرطب طرقاتها ويضيئها واحدة تلو الأخرى، فهم من صوتها أنها مبدئياً موافقة على عرض الزواج، أما الخطط وطريقة التنفيذ سيتفقا عليها معاً.

ومع فرحته بأيام مقبلة، مختلفة في شكلها، حتى في مكانها؛ كان راضياً كل الرضا، ومنتظراً ليقدم جهداً أكبر، يستحقه ليرتقي أكثر وأكثر بنفسه؛ ليكون ما استحق أن يكون.

...تمت بحمد الله...

****

أطير شوقاً للممات

أذهب كعصفور يغرد بالفرح

كزهرة تشتاق لوعاً للمياه

كطريق فارغ من المشاة

يشتاق أن يخطو به حتى الهواء

في موتي نبدأ من جديد

نبدأ وكأنني وليد

ستعيش بدلا مني روحي في الحياة

سيعيش قلبي مرة ثانية بقرض الحياة